

دار الثقافة والنشر الكوردية
Kurdish Culture and Publishing House

بانسيون الربوة العالية

قصص مختارة

إسماعيل سليمان هاجاني

ترجمها عن الكوردية
ماجد الحيدر

بغداد ٢٠٢١

وزارة الثقافة والسياحة والآثار
دار الثقافة والنشر الكوردية
تسلسل (٥٨٩)

بانسيون الربوة العالية

قصص مختارة

إسماعيل سليمان هاجاني

ترجمها عن الكوردية: ماجد الحيدر

بغداد ٢٠٢١

عنوان الكتاب: بانسيون الربوة العالية (قصص مختارة)

اسم المؤلف: اسماعيل سليمان هاجاني

الترجمة من الكوردية: ماجد الحيدر

الطبعة : الاولى ٢٠٢١

الناشر: دار الثقافة والنشر الكوردية

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٦٧٢) لسنة ٢٠٢١

المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
تقديم	٥
إفطار العريس	٩
البيضة ذات الصفارين	١٥
الحذاء المقدس	١٧
الصندوق الأصفر	٢١
الصندوق الأحمر	٢٣
الصندوق الأخضر	٢٥
الصندوق الأسود	٢٧
المدينة تحت الأرضية	٢٩
أثات الكمنجة	٤٥
بانسيون الربوة العالية	٥٥

حدوة البُراق	٦١
حين تصير القطط نموراً	٦٥
زبيب	٦٩
قصيدةُ بكماء	٧٣
كفن جدتي	٧٥
لعبة الإحتمالات	٨١
ام	٨٧
من قصص الانفال	٨٩

تقديم

لماذا القصة الكوردية.. لماذا اسماعيل هاجاني؟

إن المتابع لشأن الأدب السردي الكوردي تعتريه الدهشة من تحوله خلال عقود قلائل من سماته البسيطة أسلوبيا، المحدودة موضوعيا، القليلة كميا، الى هذا الثراء والوفرة والتنوع الذي يتمتع بها الآن.

كانت القصة الكوردية القصيرة، باعتبارها فرعا من الأدب السردي، تحفر الصخر كي تجد لها مكانا تحت الشمس وخصوصا في ظل السيادة المطلقة للشعر والآداب الشعبية الغنائية والملحمية، شأنها في ذلك شأن كل الشعوب التي عرفت الرواية والقصة (بشكلها الحديث) في وقت متأخر نسبيا بعد عقود من احتكار الشعر للقب (الأدب).

خلال تلك الفترة القصيرة نسبيا (بمقاييس التاريخ) تحولت القصة الكوردية من مواضيعها الحكائية التقليدية المباشرة، التي تدور غالبا في أجواء القرية أو في فلك الكفاح السياسي والقومي وتتبنى تكنيكا يتسم بالمباشرة والحماس الثوري ومحدودية الأصوات وبساطة الحبكة وبناء الشخصيات، الى شكلها المعاصر الذي يجعلها منافسا جديرا بالاحترام لمنجزات القصة القصيرة إقليميا وعالمياً.

قدمت القصة الكوردية القصيرة، وما زالت، العديد من الأصوات المتفردة المهمة مما لا يمكن تعدادها في هذه المقدمة القصيرة. لكنها لم تنل، للأسف، حظها من الترجمة (الى) اللغات العالمية الأخرى ومنها العربية على الرغم من الثورة العظيمة التي حدثت في ميدان الترجمة الى اللغة الكوردية (من) تلك اللغات! واسماعيل هاجاني واحد من تلك الأصوات المتميزة التي تستحق لفت أنظار القارئ العربي إليها.

ولكن مالذي جعلك تختار قصص اسماعيل هاجاني لتقديمها الى قراء العربية؟

ربما طرح القارئ الكريم هذا السؤال وهو يقلب في عجالة صفحات هذا الكتاب. ورغم ثقتي بأنه سيعثر بنفسه على الإجابة وهو يمضي في قراءته، لكنني أود الإفصاح عن عدد من الأمور التي دفعتني الى الاستمتاع بقراءة قصص هاجاني أولا ثم الاقدام على ترجمتها ثانيا.

إن قصص هاجاني تتمتع بصفة تفشل العديد من القصص والروايات في الوصول اليها ألا وهي صفة النفاذ الى أعماق القارئ ودفعه للتفاعل معها حد القهقهة أو البكاء. إنها ليست سياسة في قالب قصصي ولا علم اجتماع، علم نفس، تاريخا أو مذكرات اتخذت لها لباس القصة إنما هي قصة، قصة

فحسب. والقارئ هنا لا يتركها حتى ينهيها سواء أطالت أم قصرت أي أنه لا يرغم نفسه على اتمامها بدافع الحرج أو إسقاط الفرض أو المجاملة كما قد يفعل مع بعض الأعمال الأدبية، ولعل ذلك يرجع الى السرد المشوق الحافل بالمواقف والتفاصيل الحية.

قصص هاجاني يمكن قراءتها على مستويات عديدة إذ يمكن عدّها قصصاً رمزية أو واقعية أو هزلية أو فنتازيا أو كل ذلك معا. وهي تعكس شخصيته المرحة التي يشوبها حزن دفين نابع من معاناةَ شعبه التاريخية في مشاهد إنسانية مؤثرة

وهو يرسم شخوصه في تفاصيل لا يلتقطها إلا كاتب متمكن من فنه، أنظر اليه وهو يصف في ضربات ريشة سريعة ماهرة حركات الموسيقار الأعمى بطريقة تجعلك تشعر بأنه ماثل أمامك بلحمه وشحمه (قصة أنين الناي)، ثم انظر الى طريقة الجدة العجوز في الكلام التي تجعلك مستغرقاً في أجواء القصة المحلية وشاعرا في الوقت عينه بأنه يصف كل جدات العالم في كل مكان (قصة كفن جدتي)

وهذه الصفة، أعني الجمع بين المحلية والعالمية، بين أجواء القرية الكوردية وحارات مدنها بكل تفاصيلها وبين القدرة على تصوير النفس البشرية بأحزانها وأفراحها أينما كانت، إنما تمثل واحداً من أهم معالم أدب هاجاني.

إن قصصه الصادقة الحميمية الضاجة بالتفاصيل الصغيرة التي تنبض بالحياة تنتهي في العادة بضربه معلم ماهر تدفع القارئ للضحك أو الوجوم أو كليهما معا! هاهو بطل قصة كفن جدتي يرفع في نهايتها قبضته للسماء في لوعة عظيمة، وها هي بطلة قصة قشور الفستق في غاية الارتياح والاشباع الجنسي بينما لا تعرف هل تضحك أم ترثي للورطة التي وجد بطل قصة أنين الكمنجة نفسه فيها!

لا أعرف من قال إن هناك نوعين فقط من الأعمال الفنية: جميلة وغير جميلة! لكنني أعرف بأن قصص هاجاني، وباختصار شديد قصص حيّة، مشوقة، جميلة، في وقت قد يخجل فيه البعض من الاعتراف بأن الجمال (حتى في المأساة) هو الشرط الأساسي الأول لكل عمل فني ناجح!

وحسبي أنني حاولت أن أنقل للقارئ بعضا من هذا الجمال!

د. ماجد الحيدر

إفطار العريس

مضت سنتان مذ تعرفتَ عليه، جرى ذلك بسبب عملكما سوية في تبييض الجدران وصقلها. كان حرفيا ماهرا في مجال عمله. في يوم ما تناهت الى أسماعكم أصوات طبول ومزامير قادمة من أطراف القرية التي تعملون فيها. فألقى في ذلك الصباح الباكر مالّجه وأمسك بخرقة من القماش وشرع بالرقص وهو في مكانه وصاح مرتين وثلاث:

فداك وفدى مزمارك نفسي ونفس أمي يا حاجكو! يا لك من زمّار ساحر. كأنني أراك الآن واقفا أمام شباك العروسين لتخاطب العريس منشدا على نغمات مزمارك :

"انهض يا عريس.

فطوركما جاهز

والمدعوون جاؤوا من بعيد.

أخواتك وبنات عمك ينتظرون خروجك"

وتوقف لحظة ثم قال:

- آهٍ متى يأتي اليوم الذي تقف فيه عند شباكنا أنا وشهلائي وتنفخ خديك عازفاً على مزمارك الأصفر، فترفع فوهته نحو السماء طورا وتنزلها طورا. إيه يا ملك الزمّارين.

لسوف أعصيك وألبث في غرفتي حتى تعزف لحنك مرتين أو ثلاثا في ذلك الصباح الباكر وتوقظ الأموات من نومهم، عندها فقط أخرج مثل واحد من البكوات وأدور حولك بضع مرات ثم أقف في مكاني وأرقص هازاً بدني كله وأفرغ فوق رأسك مسدسي ذا الأربع عشرة إطلاقه. ثم تتقدم البنات وتعلو الزغاريد فأمد يدي الى عبّي وأخرج رزمة من دنانير حمر أدسها في لفافة رأسك بينما يغربل رفاقي وأبناء عمومتي السماء بالطلقات..

وتوقف فجأة وأطلق حسرةً طويلة ثم قال:

- آه، متى يأتي ذلك اليوم؟
- ولكن ماذا حدث وأين وصلت حكايتكما؟

سأله أحد أصدقائك فأجاب:

- ماذا أفعل يا أخي؟ لقد أرسلت الخاطبين ثلاث مرات دون فائدة. ابن عمها الخبيث يقف في طريقنا لأنه يريدها لنفسه. لقد بعثت الملالي والشيوخ والأغوات لكن دون جدوى.
- وما الحل إذن؟ هل تريدنا أن نخطفها لك؟
- لا لن أفعل هذا، وأنت تعرف لماذا.
- تجنبا للثارات؟

- كلا، بل من أجل تلك الأغنية التي يغنيها حاجكوبي في الصباح الباكر عندما يأتي لإيقاظ العريسين. أريد أن أصبح عريسا وأقيم حفل زفاف كبير.

عندما وقعت عيناك على شاهده بين القبور تذكرت قوله هذا فابتعدت عن الحشد ونسيت الميت والتابوت وأطلقت العنان لذاكرتك وسبحت في عالم الخيال.

آه من تلك الليلة السوداء، الليلة العاثرة، ليلة مقتل العشق المقدس، كل المدعوين كانوا يعرفون ما يقاسيه، حزينا كان، مكروبا، مهموما، يُلين قلب كل كافر قاسي الفؤاد. قبل الزفاف بيومين قال أحد أصدقائك:

- من الأفضل أن نذهب اليه نحن الاثنين ونطيّب خاطره ونبعده عن القرية خلال يومي الحفل. دعنا نذهب الى المدينة بحجة التنزه كي نشغله حتى ينتهي الحفل.

لكنه لم ينزل عند رأيكما وقال:

- أريد أن أراها بثياب العرس وأن أسمع بأذني. حاجكو عندما يغني لهما اغنية ايقاظ العروسين في الصباح الباكر.

أبعدتماه رويدا رويدا عن الحفل قبل أن يدخل العريس الى حجرته، وجلستم عند بيدر صديقكم الكبير، صديق الضيق،

الذي نحّى السنابل وانتشل من تحتها كيسا ورقيا بلون التراب أخرج منه ثلاث قنانٍ صغيرة حمراء عريضة وشيئا من لقم الحلوى وقال:

- هيا نحتسي شيئا من هذا ونأكل قطعة من الحلوى. سيريحنا ذلك ويبعدنا عن هذه القرية العديمة الوجدان.

وعندما انطلقت صلية من رصاص شقت عنان السماء، وحمي صوت الحفل وعلت الزغاريد انتابته نوبة من البكاء وأخذ جسده يرتعش فضمه صديقه الكبير الى صدره وراح يربت على ظهره ويقول في أذنه:

- إهدأ يا أخي فلا أحد يعرف رزقه ولا أوان رحيله. إنها مشيئة الله على ما يبدو.

في تلك الليلة نمتم انتم الثلاثة فوق سطح بيت صديقكم. واكتشفتم حين استيقظتم في الصباح بأنه ليس في فراشه فتوجهتم بسرعة الى مكان الحفل. كان قد دخل الخيمة قبل الجميع كي يسمع مزمار حاجكو ساعة يوقظ العريسين. لم يكتف والد العريس بأن يعلق عددا من جلود الأغنام على جدران منزله كي يعرف المدعوون كم ذبح منها بل أضاف اليها بعض الجلود القديمة زيادة في الوجاهة.

قبيل أن تتوسط الشمس كبد السماء خرج العريسان للمشاركة في الرقص وشرع حاجكو بنفخ لحن الشاميران بدت العروس حزينة مهمومة ولم ترفع رأسها غير أنها كانت تبحث عن حبيبها بطرف عينها. ورأته قائما على رؤوس أصابعه وقد لف عنقه بعمود الخيمة وهو يلهث بشدة. وما أن التقت عيناهما حتى تدلى عنقه وفقد وعيه. وتجمع الناس وعمت الفوضى، وشقت العروس ثوبها وأطلقت صرخة مدوية من الأعماق ثم فرّت الى غرفتها.

وألغي الحفل. ومسح عجوز ذو حلة زرقاء عينيه بطرف غطاء رأسه وتمتم بشيء ثم مضى.

إهداء

الى روح الشاب الذي كانت الهدية التي يتمناها أن يعزف له حاجكو لحنه الأثير:

- انهض يا عريس

مدعووك على عجل وطريقهم بعيد.

لكن لا هو غدا عريسا ولا عاد حاجكو يعزف لعريس بمزماره الأصفر.

البيضة ذات الصفارين

كنا نملك الكثير من الدجاج. من بينها دجاجة رصاصية اللون تبيض كل يوم بيضة ذات صفارين، الأمر الذي جعل جدتي تحبها وتدللها وتؤثرها على صاحباتها وتخصها، ساعة إطعام الدجاج، بعدد إضافي من حبات القمح التي تلقيها أمامها وتروح تطرد الأخريات حين يدنين منها لمشاركتها وتصيح بهن:

- هيا ابتعدن. هل تساوين أنفسكن بها؟ هذه بركة البيت وجالبة الخير له!

لكن تلك الدجاجة كانت تتسم بخصلة سيئة: فهي، علاوة على رفضها الرقود على بيضها، كانت لا تحب أن ترقد الدجاجات الأخريات على بيضاتها ذوات الصفارين، فتراها لا يقر لها قرار إذا ما وضعت جدتي بعضا منها تحت دجاجة غريبة فتواصل النقيق والهياج وتبحث عن أية فرصة لتهجم عليها وتكسرها بمنقارها كي لا تنمو أجنتها وتفقس.

لم تفعلها مرة أو مرتين بل استمرت على تلك الحال حتى بلغ غضب جدتي أشده فأمسكتها ذات يوم من خناقها وقالت لها:

- اليوم أذبحك! لماذا تواصلين هذا الفعل السيء؟ أنتِ لا تكتفين بامتناعك عن الرقود على بيضاتك كما الأخريات، بل لا تدعين غيرك يرقد عليها!

رفعت الدجاجة نقيقها وزعيقها وأجابت بصوت مختنق:

- لأن فراخي ستخرج للدنيا برأسين سرعان ما يتعاركان على صرصار أو دودة أو حبة قمح ما حتى يفقأ واحدهما عين الآخر أو ينقره حتى يدميه. لهذا السبب لا غير أكره أن تفقس بيضاتي عن فراخ برأسين!

الحذاء المقدس

حين يمر من أمام المقهى كان يحمل على الدوام زوجا من الأحذية في يده اليمنى بينما يده اليسرى منشغلة بحك لحيته الشعثاء، وثمة سيكارة تتدلى بين شفتيه. لحيته الطويلة السوداء كانت تخفي كل ندوب وجهه الحزين.وتجاعيده.

لا يستطيع الناظر اليه أن يعرف إن كان أخرس أم متكلماً، حزيناً أم مسروراً، لكنك تخمن على الفور بأنه منهمك بالبحث عن شيء أضاعه لأنه يذرع البلدة طولا وعرضا ألف مرة في اليوم وقد أحنى رأسه لينظر أمام الأقدام. كلما بلغ المقهى وقف العم يوسف بلحيته البيضاء قبالته والدموع تنهمر على وجهه ويقول له في غصة ومرارة:

- طوبى لتلك الأيام يا عماه.. ليتنا متنا معا ولم نر هذا اليوم.

كثيرا ما كان يتكور على نفسه تفادياً للحصى وسدادات قناني الكولا التي يقذفه بها الكبار والصغار معا. وعندما يراه العم يوسف على هذا الحال كان يتقد غضبا ويصبح أكثر جنونا منه ويمطرهم بوابل من الشتائم والألفاظ القبيحة:

- كذا وكذا بأمهاتكم! أنتم لا تعرفون من هذا. إنه مِحْيُو[1]، الامير محيو[2] ، رجل الأيام الصعبة، الذي جعل من صدره متراسا يصد الأعداء. عندما شبت الثورة واستعرت الحرب تلقى الرصاص في صدره ورفض الإخلاء والتداوي رغم كل محاولاتنا لإقناعه واكتفى بالقول:

لو كان علي أن أموت برصاص الأعداء كما يفعل الرجل الحق، فلأمت إذن وأتمرغ في التراب. لقد خلقت من مشيمة هذه الطبيعة ودوائي منها. ثم قام مثل دب جريح وارتمى في بركة وطهر جرحه بمائها. واليوم تتلاعبون به. انكم والله ملة لا تستحق الحياة. أتعرفون لماذا لم نصبح شيئا حتى اليوم؟ لأننا ندوس على مقدساتنا! لو كان هذا في بلاد أخرى لأقاموا له تمثالا.

أما هو فلم يكن ليضحك أو يبتسم بل يمضي في طريقه مثل قطار لا يخرج عن سكّته باحثا دون توقف عن ضالته. كثيرا ما خاطبه السفهاء والحمقى وقد ارتسمت على وجوههم ضحكة باردة:

- تعال. ها هنا دينار فهل هو لك؟

أو يقولون له:

- تعال الى هنا. هل هذا خاتمك؟

فلا يأبه لهم ويواصل ذرع الطريق. إذا عطش فإنه لا يسأل أحداً كوبَ ماء، بل ينحني على أي جدول ويعبُّ منه. إذا جاع فإنه لا يقف على موقد مطعم، بل يمد يده في أي برميل للأزبال ويلتقط كسرة من رغيف ثم يمضي في دربه. لكن أولئك السفهاء لن يلبثوا أن يجتمعوا عليه وينادونه:

- تعال يا محيو. هذا الشخص يريد شراء حذائك. بكم تبيعه؟ بسبعة دنانير؟ بخمسة عشر؟ بمئة؟

فيكفر وجهه، ثم يزرقّ، ثم يحمرّ ثم يصفرّ ويمسك بشعره ويصيح من أعماقه:

- هذا حذاء الثورة لا حذاء لأقدام جراء من أمثالكم. أغربوا عن ناظري وابحثوا عن جدار تعوون تحته أيتها الجراء القذرة!

في ذلك اليوم لبث أمام بوابة مدرسة وأخذ يوقف كل طفل يمر ويقول له:

- خذ. هذا الحذاء لك.

لكنهم يضحكون ويجيبونه:

- حذاؤك أكبر من قوالب أقدامنا.

ويقول له آخرون:

- المزابل ملأى بمثله.

فيضطرب ويتغير لونه مثل فصول السنة ويحني رأسه ويجرجر أقدامه مبتعدا عن المدينة. بعد ثلاثة أيام عثروا عليه في كوخ مهجور خارج البلدة. كان يرقد جثة هامدة وقد ضم حذاءه الى صدره فحمله البعض الى المقبرة وألقوا بفردتي الحذاء في إحدى المزابل.

(١) تصغير محي الدين.

(٢) نسبة الى ملحمة غنائية كوردية تتحدث عن رجل يدعى الأمير محي يبحث، مثل كلكامش، عن الخلود.

الصندوق الأصفر

عندما عاد جدي الثالث من اجتماع الحلف المقدس[1] معرِّجا في طريقه على مدينة وان[2] ليزور صديقه الأرمني، كان يحمل صندوقاً أصفر يلمع كالذهب. لكنه لم يكن مصنوعا من الذهب بل من نحاس أكثر صفرة منه. لم نره يوما على هذا القدر من السعادة والسرور. يُخال اليك أنه قائد ظافر عائد من معركة حامية. نادى على الجميع، العجائز والأطفال والبنين والأحفاد وخاطبهم قائلاً:

- هل ترون هذا الصندوق؟ لا تخشوا بعد اليوم من الخوف والجوع والتنكيل وفرمانات الإبادة. هذا الصندوق سيرفع رؤوسكم عاليا مهما تكالبت عليكم المصاعب والأهوال. لكن الدنيا حياة وموت ولا أعرف متى أفارقكم، ولهذا أوصيكم أن لا تفتحوه من بعدي. ستشهدون الكثير من الأيام الصعبة السوداء، الكثير من الشقاء وأوامر الإبادة والفرار الجماعي، لكن ابذلوا كل ما في وسعكم كي لا تفتحوا الصندوق، وتذكروا دائما أنكم تملكون صندوقاً إذا سألتموه طعاماً أنقذكم من المجاعة والعوز. لا تخافوا مهما حصل لكم لكن حافظوا على الصندوق، لا تضيّعوه ولا تفتحوه فهو أمانة في أعناقكم. إن في داخله من الثروة والمال ما يجعلكم في غنى عن اللؤماء. لكنني أرجوكم أن تجدّوا وتعملوا على الدوام وأن تتركوا هذا الصندوق لأبنائكم وأحفادكم مغلقا سليما كما أفعل أنا.

(١) حلف أبرمه زعماء العشائر الكوردية في مناطق وان وبدليس وبايزيد وباطمان ونصيبين وأقسموا فيه أمام أمير بدرخان على موالاته والقتال معه في ثورته ضد الاحتلال العثماني.

(٢) مركز محافظة وان في كوردستان الشمالية (التركية) يبلغ سكانها أكثر من مليون نسمة أغلبهم من الكورد مع أقليتين تركية وأرمنية.

الصندوق الأحمر

ترك والد جدي لورثته صندوقا تغير لونه على مر السنين حتى لم يعودوا يسمونه الصندوق الأصفر. وعندما يرتحلون من مكان لآخر. كان يناديهم:

- أين الصندوق الأحمر؟ ضعوه في خُرج فرسي؟

في زمانه جاب المصائف والمشاتي اثنتين وستين مرة. ومرّ بظروف عسيرة ومريرة بدءاً من حرب المَسقوف[1] حتى حرب (الروم) [2]وعم الجفاف سبع مرات لكنه صمد في وجه القحط والمجاعة ولم يفتح الصندوق. وعندما أحس بسكرات الموت نادى على أولاده وأحفاده وقال لهم:

- الصندوق الأحمر أمانة في أعناقكم يا أولادي. تذكروا على الدوام أنكم تمتلكون ثروة كبيرة وأن هناك قوة عظيمة تسند ظهوركم. كونوا رجالا أشداء صالحين ولا تطلبوا العون من اللؤماء. هذا الصندوق أمانة في أعناقكم فصونوه ولا تفتحوه، وسلموه الى أولادكم سليماً كما سلمنيه أبي وكما أسلمكم إياه.

(١) أي الحرب الروسية العثمانية التي نشبت أواسط القرن التاسع عشر.

(٢) ربما يشير الى الحرب التركية اليونانية أواخر القرن التاسع عشر.

الصندوق الأخضر

قال جدي:

- عندما صرت رب الأسرة وورثت هذا الصندوق لم يكن الشيب قد خط لحيتي. وعندما جاء الطاعون حلت الفوضى وتقاتل الناس فيما بينهم، لكنني حافظت على رباطة جأشي وصممت على وقاية أنفسنا وعدم الخروج الى الناس حتى لو استمر الطاعون سبع سنوات طالما حافظنا على هذا الصندوق. لقد اجتزنا أياماً سوداء لا عدّ لها. لم أحفل بالجزية والضرائب التي صار العثمانيون يضاعفونها، وجاء الانكليز والفرنسيون، قطعوا علينا الطرق والأنهار، جعلونا مثل طيور كسيرة الجناح ومنعونا من ارتياد مصائفنا ومراعينا ومسارح أغنامنا. لكننا أصررنا على البقاء طيورا أحرار تأبى التدجين. وبقيت أقدامنا ملتصقة بهذه الأرض مثل عربات قطار لا تغادر سكّتها وتمضي في طريقها دون توقف. وهكذا يا أولادي، لتعلموا أن الدنيا موت وحياة. وإني لأرى نفسي مثل ثوب مهلهل وقد حق لروحي أن تبحث عن ثوب آخر في مكان وزمان آخرين. أوصيكم بالصندوق الأخضر. وكما تعاقب عليه العديد من أجدادكم ولم يقدموا على فتحه فإنني أوصيكم بألا تفتحوه ما أمكنكم ذلك وأن تورثوه لأبنائكم من بعدكم

واحمرت عينا والدي واغرورقتا بالدموع عندما تناول الصندوق من جدي وأجابه في حشرجة مختنقة:

- ليكن الله في عوني كي لا أحتاج الى فتحه طالما بقيت على قيد الحياة.

الصندوق الأسود

عندما وصل الصندوق الى يد أبي كان لونه قد اخضر بسبب عوادي الزمن. في الأعوام التالية كان أبي يخاطبنا في كل مرة نرمم فيها جدران البيت ونطليها قائلا:

- ضعوا الصندوق الاخضر جانبا يا شباب.

لكن بعد اندلاع الثورة واحتراق بيتنا تغير اسمه الى الصندوق الأسود. أتذكر كما في الأحلام كيف تصاعدت النيران من أفاريز المنزل وشبابيكه فتراخت ركبتا أبي وأخذ يردد:

- يا الهي. واحد من أبنائي ولا هذا الصندوق!

وعندما غادر العساكر ورآني ألطم على صدري حزنا على احتراق المصوغات الذهبية وأوراقي النقدية العشرة الحمراء من فئة الخمسة دنانير احتضن أبي الصندوق مثل طفل رضيع وقال لي:

- ليعمر الله بيتك. فداك كل المال والأثاث والذهب ما دام الصندوق سليما.

بعدها بأعوام وقعنا في مشاكل ومصاعب مالية شديدة لكن أحدا منا لم يجرؤ على الحديث عن فتح الصندوق. وقبل أن يموت أبي استدعاني وارسل في طلب ملا القرية واثنين من كبار السن وقال لي:

- إني أسلمك هذا الصندوق فاقسم بحياتك ألا تفتحه وأن تسلمه لأولادك وأولاد أولادك ليسلموه من يد ليد.

وها قد حافظت عليه لعشرين عاماً حتى ذلك اليوم الذي أصابتني فيه جلطة شلت رجليّ ويديّ وأمالت فمي وعيني فناديت أولادي وسلمتهم الأمانة وأرحت قلبي ثم أغمضت عيني لوهلةٍ. وعندما استيقظت سمعت أصوات طرق قرب رأسي فأقمت نفسي وإذا بي أرى ابني الصغير منشغلا بالانترنت بينما وضع الكبير الصندوق بين ساقيه وهو يحاول فتحه بالمطرقة. وقبل أن أصيح به "لا تفعل".. كان قد كسر الغطاء!

المدينة تحت-الأرضية

لستَ تعرفُ ماذا تفعل في انتصاف الليل هذا. من أين تأتي؟ الى أين تذهب؟ منذ شهر والمطر يجثم على أنفاس الناس. لكنك تعشق المطر، الناس تثمل بنجيع الكؤوس وأنت بقطرتين من المطر. بيد أنك تخاف من البرق والرعد وتكرههما لأنهما يجفلان البشر ويبعدانهم عن أطياف الثمالة.
المدينة تحت الأرضية لا تبعد سوى مئتي خطوة وراء بيتك. ها أنت ترى خطواتك تسرقك الى باطنها. ألقيتَ عليهم تحية الاسلام فرد عليك الجميع بأحسن منها والحق يقال، صغيرهم وكبيرهم، نساؤهم والرجال.

جلستم وشرعتم بتبادل الأحاديث. ثمة بينهم واحد من محبي المزاح واللعب. كان يعبث بشاهدة قبر صديق له ويقول:

- مكتوب هنا أنك شهيد الوطن، الخلق كلهم يعلمون بأنك كنت يا عمّ تعمل في التهريب، فمن أين أتتك الشهادة؟

ثم يلتفت الى أحد الشباب ويقول:

- شجرة الزيتون فوق شاهدتك ارتوت من الماء بفضل المطر. أمك منشغلة طوال الصيف بالنزهات ولا وقت لها لتسقي زيتونتك بقطرة ماء!

وهنا انبرى له أحد الرجال لينهره قائلا:

- كفّ عن لجاجك هذا ودع هذا الرجل القادم للتحدث معنا كي نشبع من كلامه عن أحوال الدنيا.

ودنا طفل كثير الحراك وقال:

- هل معك بعض الشكولاتة يا عم؟

تفقدت جيوبك فلم تعثر فيها على أية قطعة من الحلوى فتمتمتَ:

- ليت رقبتي اندقت! لماذا لم أملأ جيوبي بالحلوى لأجل هؤلاء الصغار؟

ثم لم تملك غير أن تعده بأنك ستجلب له الكثير من الأشياء إن أتيت مرة أخرى.

لا أطيل عليكم، لقد ارتموا عليك وبدأوا بالسؤال والشكوى. أحدهم قال:

- أهلنا قد نسونا. اذهب وانظر في أرجاء الدنيا. أماكن الكلاب والعجول والحمير عند غيرنا أفضل وأنظف، أين تحضرّنا الذي يدّعون؟

وردد العشرات معا:

- لا زيارات، لا خيرات ولا صدقات. كانوا يأتون كل يومين أو ثلاثة وهاهم يزوروننا بالكاد بين عيد وآخر.

ثمة طفل لا يكف عن البكاء. سألتهم عما به فأجابوك:

- لقد جاء الى هنا لكن أمه لم تزره، ولا نعرف ماذا نفعل به. لقد فشلت كل محاولاتنا لتهدئته. لا حول ولا قوة إلا بالله. أ فهل من فرق بين الأطفال والكبار؟ ألم يكن الكبار أطفالا ذات يوم؟

وتساءلت صبية خفيفة ظل ممشوقة قوام:

- عمّاه. قل لي بربّك: أما زلتم تستخدمون الفيسبوك الذي خرّب بيتي. ذلك الذي كان سبب انتحاري؟

فتهز رأسك مؤكّدا وعلى وجهك ابتسامة مُطمئِنة:

- ليت الأمر اقتصر يا ابنتي على الفيسبوك. لقد ظهرت أشياء أخرى عديدة، الفايبر، الواتس-أب، السناب الى آخره مما لا أعرف اسمه وعمله. صدقوني إن قلت لكم إن تناول وجبة ساخنة صارت إحدى أمنياتنا؛ إذ حالما يضعون السفرة حتى يقال لنا توقفوا، لا تقتربوا من الطعام حتى نلتقط له صورة لأجل السناب!

ثم سأل رجل حسن الهيأة:

- أنتم يا أهل الدنيا، أما زلتم تقفون دقيقة حداد علينا نحن الشهداء؟
- بلى و الله. لو جمعت الدقائق التي وقفت فيها أنا وحدي لناهزَت سنة كاملة من عمري. ثمة أيام يعقدون لنا فيها سبعة اجتماعات ويجعلوننا نقف على أقدامنا في كل مرة.
- لسنا في حاجة الى هذا النوع من التكريم (علق الرجل في استياء) لو أردتم حقا أن تكرموننا فعليكم أن تحترموا المبادئ والقيم التي استشهدنا من أجلها.

وتقدم واحد منهم وأخرج ورقة من جيبه وقال:

- أنصتوا اليّ. لقد كتبتُ قصيدة جديدة.

فصاح به الجميع:

- أقعد يا هذا! قصائد، قصائد.. أهذا وقتك ووقت اشعارك؟!

فأقعى المسكين وقد غمره الخجل وتمتم بصوت مخنوق:

- عندما كنت في الدنيا لم تكن من قيمة للشعر. لم تكن الحكومة تولي للشعر اهتماما بقدر اهتمامها بلالش* والأوقاف. إن أردتم الحقيقة فأنا الآخر لم يعد لي من مزاج للشعر. لقد تحول سائقو الأجرة والحلاقون وأصحاب الدكاكين وكل من هب ودب الى شعراء!

ثم سالت إحدى العجائز:

- لا أعلم إن كان اسمي قد ظهر في قوائم الحجيج أم لا. كانت المرة الثالثة التي أسجل فيها اسمي، ولقد أملتُ أن يظهر اسمي قبل أن أجيء الى هنا.

فضحكتَ وترددت قهقهاتك في أرجاء المدينة فسألتك:

- علام تضحك يا بنيّ؟ ما الذي قلتُه؟

فتجيبها من خلال ضحكاتك:

- أمّاه، لو كانت لديك واسطة لظهر اسمك. أما بخلافه فلا تأملي ذلك. وما أنتِ والحج؟ كل امرئ حجّه أمام بابه. أرجاء مدينتنا تطفح بالصخور السود والحمر والبيض وكلها من صنع الله لا من صنع أبي! لا تحملي همّا. المهم أن نيتك كانت سليمة وقد علم بها ربك الكريم. لقد ظهرت هذه الأيام تقليعة أكثر سهولة، إذ يمكن لأقرباء المتوفي أن يؤدوا الحج نيابة عنه.

إنها نهاية الدنيا وسيأتي يوم يبيعون فيه الصوم والصلاة!

وسأل أحد المعلمين عن رواتبه المستقطعة فطيّبت خاطره وأنت تقول في نفسك:

- لو استمر الأمر على هذا المنوال فإنني أقسم لك بأن أبناء أبنائك لن يحصلوا عليها!

وفجأة قدم مجنون المدينة المولع بالشتائم وبدأ بالسباب وإطلاق الكلمات الفاحشة فقلتَ له:

- ألا تكفّ هنا أيضا عن عادتك في إطلاق الشتائم؟

فأجابك بفمه الذي يتدلى منه اللعاب:

- أولئك الذين كنت أشتمهم في الدنيا هم أنفسهم الذين يحيطونني هنا، فلماذا لا أشتمهم؟

وهب هواء بارد، وتسللت الى أوصالك قشعريرة لم يُجدِ معها ضم أطرافك الى جسدك. وازداد احساسك بالبرد، وقبل أن تنهض على قدميك رن جرس هاتفك فهزّت تلك الفتاة الصغيرة اللعوب ذؤابتيها وقالت:

- هلّا أعرتني هاتفك لألتقط به صورة "سيلفي".

وعندما ودعتهم بكت الطفلة خلفك ورجتك ألا تذهب. واغرورقت عيناك بالدموع وتعهدت لها بصوت حزين أن تعود قريبا وتجلب لها الكثير من الهدايا، وحين ابتعدت عن المدينة تحت-الأرضية فتحت هاتفك لتتفرج على الصور و"السلفيات" التي التقطتها لكم فلم ترَ غير سواد فاحم سواد فاحمٌ لا غير!

(إن) طاسة حليب تتوسطها بعرة [1]

- يوم وليلتان تكفي المرء كي يراجع نفسه ويغير أفكاره. نحن على شفا تل يطل على الماء.

قوله هذا انتشر بين أهل القرية وظل، حتى بعد أن انتقل الى المدينة، يتردد مثل حكمة يتناقلها الناس: نحن، كما قال "حمّو بلبل" [2] على شفا تل يطل على الماء.

كان رجلاً سيء الحظ. حتى أن الحكومة يوم أقرّت نظام محو الأمية الإلزامي جعلت سنة ولادته آخر سنة مشمولة بالذهاب الى المدرسة المسائية. فصار أصحابه يزورونه في دكانه الذي يبيع فيه الطيور ويتعابثون معه ويسخرون:

- ما أتعسك يا هذا! هلاّ زاد عمرك سنة واحدة ونجوت من هذا البلاء الأسود! أفي هذا العمر تمسك أصابعك التي تخشبت من المناجل وأغصان الشجر بالقلم ويعود هذا اللسان الذلق الذي تعلم أصوات العصافير ليتعلم راشد يزرع، راشد يحصد؟ [3] فيجيبهم بدمدمة وشكوى من حظه الأسود.

اعتاد لسنوات عديدة، وكلما رأى حلماً مزعجاً، أن يعترض منذ الصباح الباكر طريق جاره الملا ليقص عليه رؤياه، وكان الملا لا يملك غير جواب واحد:

- يا حميد. أنت رجل كبير. ما لكَ ودكان الطيور هذا؟ حرام عليك. أطلق طيور الله. اعتقها ليعتقك الله. هذه الأحلام المزعجة التي تراها ليست غير شكوى هذه

الطيور المسكينة البكماء التي تسلبها حريتها، فتجيعها مرة وتعطشها مرة، تتركها للبرد القارس مرة وللحر اللاهب مرة. غيّر مهنتك هذه. دع رزقك على الله وسيفتح لك بإذنه باباً أوسع.

لكن "حمّو بلبل" يتلفت ويدير وجهه عن الملأ ويتمتم في خجل:

- - والله يا سيدي أنا لا أجيد عملاً غير هذا. أنا أستمتع بصحبة الطيور ولا أعرف كيف أعيش من دونها.

نعم، كان يعشق الطيور الى حدًّ دفعه الى تسمية كل طفل من أطفاله باسم أحد الطيور، فهذه ابنته الكبرى اسمها كوتر وتلك الثاني اسمها بوري أما أولاده فأكبرهم كوندوِ والثاني شاهين، أما الأصغر فكان يناديه أحياناً يا رَشيلة أبيه وأحيانا يا عندَليكي أما في الهوية فاسمه عبدال [4]

ورغم أن زوجته امرأة بدينة ممتلئة فقد كان يحلو له أن يناديها يا عصفورتي وأحياناً يا حَجلتي لأنها كانت كثيرة النقيق والتذمر من عمله غير اللائق. كم مرة قالت له:

- أيها الأعمى قليل العقل هل بادت المهن؟ قد غدوتَ مسخرة للناس لكثرة ما يتحدثون عنك وعن هذا الدكان. لا أحد يتقدم لخطبة ابنتك. لا أحد يرضى بتزويج ابنته لابنك. كفاك هذا. لقد صرتَ عجوزاً. أهذه مهنة تمتهنها؟ دع أحد اولادك ليحيل الدكان الى متجر للبقالة، هذا أفضل وأجدى.

لكنه يكتفي بالضحك ويجيبها:

- غرّدي يا حجلة صباحاتي. غردي وغردي!

كان، في كثير من الأحيان، يستبقي واحداً من الصبيان الذين يأتون لدكانه ليقول له:

- تعال انسخ لعمّك هذا الدرس أربع مرات.

ويعود ليردد من بين شفتيه:

- أقسم بالله أن بلبلي هذا أعقل من حكومتنا وأكثر حكمة؛ تصرف كل هذه النقود للمعلمين وكل هذه الأقلام والكتب كي تعلمنا، نحن الشيوخ، القراءة والكتابة، وعندما نتكلم يقولون لنا: اسكتوا فالحكومة تريد لكم الخير، وهل تفهمون أكثر من الحكومة؟ لا حَيلل ولا من هذا البلاء[5].. وإذا تغيَّبتَ ثلاثة أيام يلقون بك في السجن. وهؤلاء "الزعاطيط" حاسرو الرؤوس، ألا يستحون من آبائهم عندما يوقفون المرء قبالة السبورة وعندما لا يعرف الجواب يضحك منه الآخرون ويقهقهون مثل بغايا المبغى.

في ساعة متأخرة من العصر حمل حقيبته متثاقلاً متردداً وتوجه نحو المدرسة بعد أن نظر مراراً الى الطريق من شدة الخوف والخجل. في المدرسة أيضا حاول أن يخفي نفسه في زاوية الصف الثالث من المقاعد لكن المعلم لم يتركه وشأنه حين وصله الدور للقيام الى السبورة. كانوا

قد شرعوا ذاك اليوم في درس جديد قرأه المعلم مرات عدة مردداً فيه اسم نوري.[6]

بعد تثاؤب طويل التفت الى صاحبه و همس له:

- حسنٌ ما جرى عندما حلَّ ابن الكلب رَشكو[7] عنّا. هذا نويري[8]. إذا أخطأت يمكن أن تتذكر نويري نافدل !

وقف المعلم على رأسه:

- تفضل يا عم حميد جاء دورك للقراءة.

ارتعشت أصابعه وشفتاه وانتابه الجزع وقال بشق الأنفس (ننن.. نييي...نوي..نوي..نويري.. نويري) فكوّر المعلم شفتيه وردد عليه (نوو.. ري.. نوو.. ري.. نوري.. نوري..). فما كان منه إلا أن يلتفت اليه ويقول له محتداً:

- عجباً، وما الذي أقوله؟ ألا أقول نويري؟ أنا ونويري صديقان مذ كنت في السابعة ، أنطقُ اسمه ألف مرة في اليوم. وتأتي أنت الآن لتقول لي قل كذا وكذا! (ونقل ناظريه في زملائه داخل الصف فوجد الجميع يضحكون) أيها الأصدقاء هل قلت شيئاً خاطئاً؟ أستحلفكم بالله كم سنة مضت على تعارفنا أنا ونويري كي تأتوا أنتم وتعلموني باسم صديقي؟ أقسم بالله ألف مرة لو تحدثتم حتى الصباح سيبقى اسمه نويري!

تراجع المعلم قليلاً وقال له:

- لا تغضب يا عم نوري أنا مثل ابن أخيك. هذا مجرد درس. درسنا هو نوري. أعرف أن صديقك اسمه نويري، لكن هذه حروف ونحن نلصق بعضها ببعض وكل حرف له صوت. إننا نرسم هذه الأصوات لكي تتعرفوا من الآن فصاعداً على صوت (إن) وتتعلموا كتابته. افترض أن حرف (ئن.. ئن.. ئن) هو ضيفنا الجديد. من منكم يعرف ماذا يشبه؟

أجاب أحدهم بأنه يشبه طاسة حليب تتوسطها بعرة، وقال آخر ضاحكاً وهو ينظر الى العم حميد:

- إنه يشبه عش حمامةٍ فيه بيضتان.

امتقع وجه حمو بلبل وأجابه في غضب:

- من أنت لتقول هذا. الحمام يبيض بيضتين. لا تتحدثوا عن الحمام والعصافير هذا ليس شغلكم. حسناً هل يرسم المرء الأصوات أم يسجلها؟ لو كان الأمر هكذا لما ذهب محمد عارف جزيري الى تسجيلات طه الشنكالي[9] وسجل صوته على البكرات ولجاء اليك وقال لك ارسم لي صوتي يا ابن أخي. يا.. أصحاب الرسوم قسماً بأسماء الله الثلاثة انتم تصيبون المرء بالجنون في آخر عمره.

ما أن أنهى قوله حتى دق جرس الاستراحة فانتصب وأخرج كيس التبغ وكشر عن أسنانه في غضب وقال:

- هيه، هيه أيها اللاهثون كالكلاب اضحكوا ما شئتم ولا تشهدوا مرة بقول الصدق وهل أنا على حق أم هو.

دخل المعلم بعد الاستراحة وسألهم:

- أين وصلنا في الحصة السابقة ولمن وصل الدور ليقوم الى السبورة؟

أجاب عدد منهم بصوت واحد:

- إنه دور العم حميد.

ارتجف العم حميد واصطكت ركبتاه من الخوف والخجل ثم تبسم للأستاذ وقال له:

- استحلفك بالله أن تملي عليّ اسماً سهلاً.

فأجابه المعلم:

- الدرس السابق بقينا فيه أسبوعاً كاملاً تقرأونه وتكتبونه.

فأسرع قائلاً:

- استحلفك بالله يا أستاذ لا تطلب مني أن أكتب اسم رَشكو، هذا الرَشكو خرّب بيتي.
- حسنا أكتب كلمة شعب.

وقف عند السبورة وأخذ يدير قطعة الطباشير يميناً ويساراً لكنه لم يستطع ذلك. كان زميله الجالس في أول الصفوف شاباً ذكياً يعشق القراءة، وقد سبق أن أوصاه قائلاً:

- اعتن بعمك عندما يوقفونني عند السبورة.

واتفق معه على شفرةٍ سرية لكل حرف. همس له الشاب:

- ثلاث أصابع وطاقيات، منجل دون مقبض، قدر برجل واحدة.

تمكنت يده المرتعشة من أن ترسم كيفما اتفق شيئاً يشبه حرف الشين، لكنها حرنت عند حرف العين فصار يوجه فم المنجل الى اليمين تارة والى اليسار تارة والى الأعلى تارة أخرى ثم يتوقف وسط ضحكات زملائه. وفجأة استدار نحو المعلم وقال في غضب:

- أستاذ. لا يمكن للسبورة أن تسع الشعب.

وأشار بيده نحو طلاب الصف وأردف:

- هؤلاء الجالسون على المقاعد هم الشعب. أولئك الذين في الأزقة وداخل البيوت كلهم شعب. هل تظن الشعب فصَّ ثوم كي تسعه السبورة. عجباً لكم أ لستم بشراً؟ ضعوا عقلكم برأسكم. هل أكلتم أمخاخ كتاكيت!؟ أقسم بأن قدمي لن تطأ هذا المكان و بأنكم لن تروني هنا بعد الآن وليكن ما يكون. السجن؟ فليكن السجن مئة

مرة! أنه لن يكون، مهما قسا بأسوأ من هذا السجن ومن قهقهاتكم السخيفة!

بعد أسبوع واحد وعدد من تبليغات مختار الحي وإدارة المدرسة جرجره رجال الشرطة من دكانه وألقوه في الموقف وحبسوه ليومين وليلتين. كان وحده في حجرة السجن، وفي ساعة متأخرة من الليل شرع بالصراخ:

- يا شرطي شحاته شخاطة ما اسمك الحقني سأنفجر. أريد الذهاب الى دورة المياه.

وقف الشرطي المتعجرف الشديد السمرة أمام القضبان ونهره غاضباً:

- ماذا دهاك يا هذا؟ لماذا تصيح كالدجاج. هل تريدني أن أجلب الكيبل وأنهال به عليك حتى تخرس يا ابن الكلب؟ فتح الباب ممنوع حتى الثامنة من صباح الغد. إذا كنت متضايقاً يمكنك فعلها في سروالك. إذا سمعت صوتك ثانية ستعرف ما أفعله بك!

استطال اليومان والليلتان حتى صارا دهرين. تكلم مع الجدران ولم يتلق جواباً، وغرد وصفّر مثل العصافير لكن الليلة لم تنقض. وتذكر كلمات الملا:

- كلامه صحيح. لقد سلبت حرية تلك الطيور المسكينة. ثلاثون عاماً وأنا أقبض عليها أسراباً وجماعات ثم أسجنها. أقسم بأنني سأطلقها كلها في الغد ولن أبقي

قفصاً سالماً. سأحررها جميعاً. التوبة إن عدت لهذا العمل!

* لالش: المزار الايزيدي المعروف.

(١) اعتاد معلمو المدارس الابتدائية (وكذلك تلاميذهم) على تسمية حروف الألفباء (ألف، باء، جيم الخ) بـ (نا، إب، إت وصولا الى إم وإن الخ) كما اعتدوا على تشبيه صور الحروف بأشكال شائعة لديهم كأن تشبّه الياء بالبطة والهاء بالأذن والباء بالقارب والراء بالموزة الخ.

(٢) حمو: تصغير لاسم حميد.

(٣) راشد يزرع، راشد يحصد: كلمات وردت في الصفحات الأولى من كتب تعليم القراءة والكتابة للكبار خلال حملة محو الأمية في سبعينات القرن الماضي.

(٤) كوتر و بور (بالباء المثلثة) وكوند وشاهين ورَشيله و عَندَليك وعَبدال كلها من أسماء الطيور في اللغة الكوردية وهي تعني تباعا الحمامة وطائر القبج والبوم والشاهين والشحرور والقبّرة وذكر الدرّاج.

(٥) يقصد لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٦) وردت كلمة (نوري) مرات عدة في كتب القراءة الأولية.

(٧) رَشكو: تصغير راشد، وهو الآخر من الأسماء التي وردت في الصفحات الأولى من كتب تعليم القراءة للبالغين.

(٨) يلفظ بعض الكورد حرف الواو بهذه الطريقة أي بصوت علة بين الواو والياء كما في (RUE) الفرنسية.

(٩) محمد عارف جزيري واحد من أشهر المطربين الكورد، وتسجيلات طه الشنكالي أحد محلات تسجيل وتوزيع الأشرطة الموسيقية والغنائية.

أنّات الكمنجة

(١)

آه لقريتك، يا لها من قرية!

زقزقة عصافير قريتك لم تكن تشبه زقزقة العصافير في أية قرية أخرى. تمايل النرجس وبخور مريم في قريتك لم يكن مثل تمايل السوسن والأقحوان في غيرها من القرى. ثغاء خرافكم ونباح جرائكم، نهيق الحمير وصهيل الخيول، بكاء الأطفال وتنويمات الأمهات وهي تمتزج مع صوت المؤذن في قريتكم.. يا لها من سمفونية سرمدية. حتى سعال الشيوخ في قريتكم كان أشبه بالموسيقى. قسماً برأسي إن قريتكم أوبرا كاملة!

لقد ملكت السمفونية الربانية عقلك وروحك، فإذا بك تقص شعر نواصي الجياد وتفرغ باطن يقطينة مستديرة لتجعل منها صندوق صوت، ثم تقتطع أملوداً من شجرة الرمان وتجعل منها قوساً لآلتك الموسيقية.

بصق أبوك عليك مرتين وثلاث، ثم جنّ جنونه، ثم لم يقر قراره من ضربات العصا التي انهال بها عليك حتى كوى ظهور أصابعك بخشبة التنور المحمرة. وراح يلهث ويتقافز كما المجنون:

- نحن والطمبور.. الطمبور ونحن، لا بارك الله بي عندما أدخلتك المدرسة وأردت لك أن تكون معلماً، لا مطرباً!

(٢)

في ذلك الوقت، وقبل أن تعرف شفرة الحلاقة طريقها الى ذقنك، كان أهل المدينة يكتشفون دون عناء أنك لست منها. كانت مشيتك جبلية، وخصلات شعرك المتدلية أمام أذنيك ريفية بامتياز. كل من رآك أدرك على الفور بأنها أول مرة تلبس فيها بنطلونا. لم تكن قد رأيت حتى الآن تلك الآلة التي تدعى المكواة.

مضى اسبوعان على افتراقك عن صديقك. بقي هو في الموصل، في دار المعلمين، فيما يممتَ وجهك شطر العاصمة، حيث معهد الفنون الجملة بعد أن تأكدت من كتمانه لسرك، فقد كنتما الشخصين الوحيدين اللذين يدخلان المدارس من أهل القرية. أما والدك المسكين فقد طفق يحدث رجال القرية قائلاً:

- إبني ذكي جدا. إنه يتفوق على ابن المختار بثلاث درجات، ولهذا أرسلوه الى العاصمة. هذا طبيعي فهم يرسلون اليها كل متميز وجدير. صحيحُ أن كليهما سيصبح معلما لكنني أعتقد بأن رواتب معلمي بغداد أعلى من غيرهم.

(٣)

مياه دجلة تبعث السكينة، وتشرع في الأماسي بالغناء للغرباء من أمثالك. جدران جامع الحيدرخانه تفوح من شقوقها رائحة

الحياة. عيناك تقعان على الكثير من الأشياء الجميلة لكنك تعرف تماماً أن ما بجيبك من نقود ما هو إلا ثمن بضعة كيلوغرامات من اللوز والسماق اللذين يبيعهما أبوك. عليك أن تكتفي بوجبة واحدة في اليوم وإلا ذهبت مساعيك وأحلامك أدراج الريح.

لا يمر يوم دون أن تكتشف أمورا جديدة في طريقك الى المعهد جيئة وذهاباً. لكن أكثر ما أستحوذ على دهشتك واهتمامك هو مقهى العميان. إن قدميك لتقفان أمامه دون حراك ويجذبك نحوه شيء أشبه بالمغناطيس. كل رواد المقهى من العميان. كلهم يلبسون بذلات سوداء ويضعون على عيونهم نظارات سوداء ويحملون عكازات ويعتمرون ب"كاسكيتات" تشبه أكواخ قريتكم. كلهم يجيدون الغناء، كلهم ظرفاء يحبون الفكاهة ويضحكون معا لكل نكتة يسمعونها. ورحت تسأل نفسك:

- كيف لهؤلاء العميان أن يصلوا الى مقهاهم؟ هل يقودهم أحد ما أم ترى يعرفون الطريق اليه دون معونة.

وأنت في طريق عودتك من المعهد تتوقف كل يوم في هذا الزقاق الضيق وتتحجر مثل تمثال تحت ذلك المنزل الأحمر المرتفع وتروح تسترق السمع مثل اللصوص وتملأ روحك بنغمات الكمنجة التي تتناهى الى أسماعك قادمة من شرفته، وتلتصق بالجدار كما السراق وتستحيل أحاسيسك كلها الى

آذان صاغية وتغمض عينيك فتحملك النغمات بأجنحة ملائكة الخيال صوب قريتك، صوب جداولها وتلالها ورُباها.

غير أن أبواب بيوت الزقاق كانت، لسوء الحظ، متقاربة جدا حتى لا يكاد يفصل بين الواحد والآخر سوى خطوة أو اثنتين. وها هو رجل طويل عريض المنكبين كأنه واحد من فرسان عهد الصحابة يخرج اليك من أحدها وقد ارتدى ثيابا خلقة ويصرخ في وجهك:

- ماذا تفعل هنا يا ابن الكلب؟!

ثم يروح يطاردك ليمسك بك، وإذا بذلك الصف من الأبواب يفتح سريعا ويخرج من كل واحد منها شاب قوي أسمر الوجه ثم انطلقوا في أعقابك حتى أمسكوا بك عند انعطافة نهاية الزقاق وانهالوا عليك صفعا وركلا قبل أن يعطوك فرصة للحديث. وتكلم الرجل الضخم الجثة:

- هذه رابع مرة أراك فيها واقفا أمام باب بيتنا. تكلم. قل من أنت وماذا تريد منا؟
- أنا طالب في معهد الفنون الجميلة. عندما أمر في هذا الزقاق ساعة العصر أسمع صوت كمنجة عذب فلا أستطيع، من شدة إعجابي، أن أمضي في طريقي دون أن أملأ أسماعي منه. هذا كل شيء.

بعد سماع تلك الكلمات أدركوا من لكنتك بأنك كردي وأنك لا تضمر نية سيئة، فأبدوا ندمهم على ضربك. ووضع الرجل

الكبير كفّه على رأسك وأدناه الى فمه وقبّل عينيك ثم قادك من يدك الى باب عازف الكمنجة وهتف بصوت عال:

- افتح الباب يا أبا عمر. لقد جئتك بضيف عزيز.

وكان في استقبالكما عندما دخلتما رجل أعمى لم تصدق نفسك عندما أبصرت به وتذكرت أين سبقت لك رؤيته. وأخذ الرجل يتحدث، مع تناول الشاي، عن نفسه وعن الكمنجة. وكنت سعيداً جدا بهذا اللقاء، ثم قال لك أخيراً:

- اسمع يا ولدي: بابي مفتوح لك في أية ساعة من الليل أو النهار. لا تخجل أبداً. البيت بيتك متى ما أردت.

لقد صرتما صديقين حميمين بعد بضع زيارات لا غير. وفي إحدى الأماسي قال لك:

- تعال لنذهب الى المقهى، سأعرفك على زملائي الموسيقيين.

لم تكن تعرف حتى ذلك الوقت بأن صديقك هو رئيس تلك الفرقة الموسيقية. لم تستفد من دراستك في المعهد بقدر استفادتك من أولئك الموسيقيين العميان. في كل مساء، وحالما يرفعون عقيرتهم بالغناء، تكتشف بأن أصابعك تنقر لا إراديا فوق سطح الطاولة على وقع إيقاع الأغنيات فنال هذا اعجابهم حتى صرت يوما بعد يوم واحدا منهم. وفي عصر أحد الأيام توقفت سيارة مكشوفة سوداء أمام المقهى وترجل منها رجل شاب وخاطب صديقك المطرب العازف:

- لقد أرسل الباشا تحياته اليك وطلب مني أن أبلغك بأنه سيقيم في قصره مولوداً نبويا ويطلب منك أن الحضور والغناء في حضرة السيدات.

أبدى الرجل سروره البالغ بهذه الدعوة، وما أن غادرت السيارة المكان حتى شرع الحاضرون في مناقشة الأمر فعرفتَ بأن طبال الفرقة لم يأت هذا اليوم وهم بحاجة ماسة الى عازف طبل فقلت لنفسك:

- هذه أفضل فرصة لأبدي لهم قدراتي (ثم تجاوزت خجلك وقلت) لا تقلق يا أستاذ. سأذهب معكم وأضرب على الطبل.

فمط الأخير رقبته ورفع حاجبيه من وراء نظارتيه وكشر عن أسنانه وقال:

- وهل ستقدر على مجاراتي في جميع الألحان؟

فأجبته بنبرة تحد:

- لا عليك. أقسم بأنني سأدفع الجدران للرقص!

وتدخل أحد زملائه قائلا:

- أيها الأستاذ، هذا الفتى ليس أعمى مثلنا، فكيف ستدخل به على نساء قصر الباشا وضيفاتهن؟ يجب أن تصحب رجلا أعمى وإلا رفض الباشا الأمر برمته.

فسارعت الى القول:

- لا تحملوا هما. سأضع على عيني نظارة سوداء وأتصرف كالعميان حتى يستحيل أي كان أن يكتشف بأنني مبصر سليم العينين.

وضحك الجميع، حتى إذا تأخر الوقت وفقدوا الأمل من مجيء الطبال، تعززت آمالك بأن لا حل للمشكلة من غيرك. فأمسكت بيده وأخذته الى بيته حيث ألبسوك نظارة سوداء ووضعوا على رأسك الكاسكيتة المطلوبة وعلقوا طبلاً على رقبتك؟

(٤)

كانت حديقة قصر الباشا فسيحة واسعة. حرصت منذ دخولكم على أداء دور الأعمى، حتى صار من يراك لا يتردد للحظة في أن يقول بأن هذا الفتى قد خرج ضريراً من بطن أمه؛ لكنك لم تكن تتمالك نفسك في بعض الأحيان فتسترق النظر الى أبهة القصر وجماله. كان الخدم قائمين على قدم وساق، فهذا يقدم العصائر، وذاك يجلب القهوة والماء وهم يتعثرون الواحد بالآخر. وامتلأت الحديقة بالكوفيات والعُقُل وأصحاب الرتب العالية. ثم اقترب رجل ذو قبعة الحمراء وساعدين مشمرين من الباشا وخاطبه بصوت خفيض:

- تفضلوا يا سيدي، العشاء جاهز في الحديقة الخلفية.

أمسك الشاب الذي أوصلكم بيد أستاذك وقال:

- تفضلوا أنتم أيضا بتناول العشاء قبل أن يجيء دوركم.

وضعوا أمامك وأمام أستاذك خروفا محشيا دسوا في فمة حبة طماطم كاملة. إنها أول مرة ترى طعاما كهذا. جحظت عيناك من خلف النظارة السوداء وكدت تفضح سرك وتهدم ما بنيتم من الأساس، لكن قوة شديدة في دواخلك ارغمتك على عدم تفويت فرصة ذهبية مثل هذه، إذ ليس من المستبعد أن يضعوا في جيبك دينارا أو اثنين. شمر معلمك عن ساعديه وهجم على الخروف بيديه الاثنتين كما لو كان ذئبا جائعا ونزل عليه نتفا وهو يقول لك بين فينة وأخرى:

- كل يا ولدي كل. لا تخجل فهذا بيت الباشا وطعامهم كله خير وبركة.

وشربتم شايكم ثم هدأت قرقعة الصحون والأطباق في جناح السيدات وقادتكم سيدة سمراء كأنها نخلة سامقة، ذات رموش سوداء وأعين نجلاء ودم خفيف نحو ذلك الجناح. آهأ آه! لقد هبت عليك فور دخولك رائحة المسك والعنبر فأدارت رأسك وأسكرتك. تلك زنودهن البيضاء تبرق مما عليها من ساعات وأساور ذهبية. وهذه معاطفهم وثيابهم المصنوعة من الحرير الكشميري. مرهفات الخصور، حمر الشفاه، ضحكاتهن ودعاباتهن أجمل من كل سمفونية. جمعٌ من علية القوم، بضّات مكتنزات، أصابعهن متقلات بخواتم الذهب والمرجان، تلتمع علب سجائرهن الفضية فوق المناضد، حتى لتظنها من الماس، رائحة الدخان المنبعث من سجائرهن أزكى من أرقى العطور الفرنسية.

وفجأة لكزك أستاذك بمرفقه وقال:

- هيا اجلب ذلك الكيس.

ثم أخرج الكمنجة وأحكم أوتارها على مهل، وران الصمت على ذلك الجمع كما الصم والبكم وشرع يصدح بمقامات قديمة مبتدئاً بذكر أسماء الحبيب المصطفى فأجابت النسوة معا بالصلاة على النبي. وتحول بعدها وتحول الى غناء أكثر خفة فنهضت كل هيفاء ممشوقة القد ليدرن حول بعضن رافعات سواعدهن البيضاء كالحليب، وفقدت التحكم شيئا فشيئا حتى ليكاد من يراك أن يكتشف بأنك لست بالأعمى. وعندما أخذن بهز أثدائهن صار المعلم يهمس لك قائلاً:

- لقد صرعتنا رائحة التفاح.

لكنك لم تقل شيئاً ورحت تنزل على الطبل كما المجنون. استمر الحفل حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندما حلت ساعة المغادرة قادكم الشاب الذي جاء بكم أول مرة نحو الباشا كي تودعوه فشكركم وأثنى عليكم ثم مد يده الى جيبه وأخرج حفنة من الدنانير وضعها في يد معلمك ودس في جيبك ورقتين حمراوين من فئة الخمسة دنانير.

لكنك لم تكبح جماح نفسك، فإذا بك تنزع نظارتيك قبل أن تستديروا خارجين وترفع الورقتين نحو عينيك!

بانسيون الربوة العالية

في كل مدن العالم وبلداته ثمة فنادق وموتيلات وبانسيونات. لكن بانسيون مدينتنا ليس إلا ربوة شاهقة تنهض في قلبها تماماً. ما أن يستيقظ أهل المدينة، صغارهم وكبارهم، رجالهم ونساءهم، في كل جهاتها الأربع، في أية ساعة من الليل والنهار، حتى تقع عيونهم عليه. بل إنه لا يغيب عن عيونهم حتى لو أغمضوها ويحل في الليل ضيفا ثقيلا على أحلام الجميع.

يا له من بانسيون عجيب. إنه، لكرمه، يقدم الطعام والشراب والمبيت مجانا. ثم إنه لا يأذن بانصراف نزلائه بسهولة، بل إن بعضهم يقضون فيه حياتهم دون أن يقطب أصحابه جبينهم أو يقابلونه بالصد والنفور.

لكن ما من أحد من نزلائه يريد المبيت فيه برغم كل هذا الكرم، بل إنهم يتمنون من كل قلوبهم ألا يحلوا ضيوفا عليه أو يمروا مرورا من أمامه.

لم تكن تعرفُ بعد أصول الضيافة ومراسيمها إذ لم تحل ضيفا على أحد غير مرة واحدة عندما ذهبت مع أمك في زيارة لبيت خالك. لكنك الآن ضيف منفرد في هذا البانسيون العجيب الذي تكمن غرابته في أن أصحابه ومستخدميه لا يملون من طرح الأسئلة ولا يقتنعون بأي جواب غير ما يدور برأسهم. حتى الضيوف الذين سبقوك اليه تعلموا توجيه الاسئلة الى الوافدين الجدد:

- من أنت؟ من أين أنت؟ ماذا تحب؟ أأنت اسود أم أبيض؟

ما أن دخلتَ حتى قامت لاستقبالك كومة من العظام. كانت الحواجب، الأهداب، الشعر واللحية والشوارب وشعر الصدر قد غدت كلها مثل لِبادة بيضاء، ولولا رؤيتك لشفتيه لحسبت أنه ليس إنساناً بل فراشة بيضاء بكماء.

قال لك:

- ليس هذا مكان يقال فيه أهلا وسهلا. فليقتصر أول تعارفنا على هذا السؤال: ما لونك؟
- ألا تراني كثيبا من الثلج ومن نسل الثلج، وملء عقلي أحلام بيضاء مثل لوزات القطن في سهل سلوبي [1].. عندما جئت للدنيا لفوني بقماط أبيض وأرضعت أول قطرتين من نبع أبيض في جسد أمي الأبيض.

لكنك سرعان ما ندمت على ما قلت، لأنك لم تعرف سوى الآن أن مسّا من عفاريت بلاد الحُمرة قد أصابك في نومك الليلة الماضية ولم يبق في جسدك خلية بيضاء إلا أحالتها حمراء وسوداء وزرقاء. اكتفيت بالقول بأنك كنت أبيض لكنك ما عدت تعرف لونك. كانت خلايا جسدك كلها تشتكي الى دماغك لكن دماغك لا يعرف لمن يشتكي .

تراجعت مكرها وسرحت بصرك في اللبادة البيضاء وتمتمت:

- أنا أبيض لكن شعري وعينيّ فقط هم السود. هل يعد هذا ذنباً؟

فتحركت تلك اللبادة البيضاء وضحكت وقالت بصوت حزين:

- في هذه البلاد الأسود أسود والأبيض أيضا أسود أو هو مزيج من الأسود والأبيض، ومتى ما امتزج الأبيض مع السود فإنه يبدل لونه ويغدو رماديا أو رصاصيا، أعني أن الأبيض لون كريم يغير نفسه لأجل الألوان كلها دون أن يتنازل أي لون بالتحول الى الأبيض من أجل خاطره. إن لم يتضح لك الأمر سأقوم بإيضاحه بصورة أكبر: الأبيض مثل فصيله الدم (o) الموجبة، تهب نفسها لكل فصائل الدم الأخرى لكنها لا تستلم من أية فصيلة مغايرة. أنت إذن واحد من اثنين: أسود أو رمادي أو.. أحمر، فالأحمر شيء مقدس في هذه البلاد منذ وجدتْ، البنت في ليلة الزفاف تُعرَف بخرقة من قماش أبيض، وعندما يصبغ غشاء بكارتها تلك الخرقة بالأحمر يطلقون الرصاص في الهواء وتحمى الدبكة ويرفع العريس رأسه ويبرم أبوها شواربه التي هي كتلة من الحمرة ثم تمطر فوقهم الحمرة.. ربما كان هذا واحدا من قوانين الطبيعة: البياض يقدم نفسه قربانا ويغير نفسه من أجل غيره من الألوان، فيغدو أصفر أو بنيا أو سماويا أو وردياً وكل الألوان الأخرى.

لويت عنقك وحككت قذالك وقلت:

- أنا لا أفقه شيئا من كل هذا، كل ما أعرفه هو أن "الأو بوزَتف" واهب لجميع فصائل الدم الأخرى. هذا ما أخبرنا به معلمنا في المدرسة.

بعد تلك الكلمات قبعت في مكانك ورحت تتطلع الى هيئته، وجهه، قامته المفتولة، وبشرته ورأسه ولحيته وشواربه وكلها ناصعة البياض. ثم نهض واقفا وتنحى جانبا وفرقع مفاصله جميعا وأخذ يروح ويجيء في القبو الضيق المعتم. أما أنت فقد سرحت ناظريك في بيتك الجديد واستعرضت زواياه واحدة بعد الأخرى وانتابتك الدهشة حين رأيته يلصق جسده المفتول بالجدار ويحفر فيه خطا بأظفر ابهامه ثم يعد الخطوط المحفورة فيه ويجفل مبتعدا عنه ويسألك:

- في أي وقت نحن؟
- لقد جاؤوا بي في ساعة متأخرة من الليل (أجبته في فتور)
- أنا لا أسألك عبثا. أعرف أن كل نزلاء هذا البانسيون يأتون في الليل. كنت أقصد الفصل الذي نحن.فيه.

وتفكرت مليا وقلت في نفسك:

- يبدو مجنونا. إنه لا يعرف الفصل الذي هو فيه.

وسكتّ ولم تحر جوابا. فعاد بعد أن يئس من تلقي ردك الى رواحه ومجيئه. وفرقع أصابعه ثم مطّ جسده وأطلق ريحا مدوية فلم تتمالك نفسك من الضحك ثم عاد وأطلق أخرى أعلى صوتا فوضعت كفك على فمك لتكتم ضحكتك. لكن الثالثة كانت أعلى وأطول بكثير فلم تطق صبرا وانفجرت في ضحكة مجلجلة غطت على أصوات بطنه، فإذا به يستدير نحوك مثل شبح خارج من أرض البياض ويصيح بك:

- اخرس! هئ هئ هئ.. نحن في السجن لا في بيت أمك.. أتضحك مما يصدر عني؟ لننتظر الى الليل ونرى من يفعلها في سرواله!

....

وقفت المدرّسة ذات السيقان المستدقة فوق رأسك وسألتك باحترام:

- هل لك يا سيدي أن تدعنا نشاركك في ضحكك؟

فغمرك عرق الخجل البارد وأنت ترى نفسك في هذا الموقف المحرج وسط هؤلاء الطلبة الذين يصغرونك بعقدين ولم تزد على القول:

- لقد ضحكت على المساومة بين الدكتور فاوست [2] والزمان لأن الزمان لا يرحم أحدا وعلى المرء أن لا يرحم الزمان! [3]

(١) يقع في محافظة شرناخ في كوردستان تركيا ويحاذي الأراضي السورية والعراقية.

(٢) إشارة الى مسرحية (الدكتور فاوستوس) لكرستوفر مارلو المأخوذة عن قصة الدكتور فاوست الألمانية التي تتناول الخطيئة البشرية.

(٣) في قلب مدينة دهوك ثمة ربوة عالية تتوزع فوقها كليات ومقرات جامعية كانت فيما مضى مقراً لدائرة الأمن الرهيبة حيث حفلات التعذيب والإعدام الجماعي.

حدوة البُراق

لم يكن بالأدهم ولا بالأحمر. هو حصان بنّي اللون برأس أسود، محجل، منخفض الجبهة. لم يكن قد تجاوز العامين عندما أركبوه الطائرة بصحبة طبيبين بيطريين يرافقهما سائسان واظب أحدهما على غسل ودعك مذاكيره بالماء الدافئ فيما يدلك الثاني جسده ويمسح العرق عنه. وكان أحد الطبيبين يقرب الى منخريه بين الفينة والأخرى دواء ذا رائحةٍ مهيجة ليدفعه الى العطاس وتنظيف مسالكه التنفسية بينما أحاط الطبيب النفسي رقبته بيديه مقربا فمه الى أذنه بين فترة وأخرى موشوشاً اليه كي يحافظ على هدوئه فهي أول مرة يسافر فيها ويركب الطائرة ويبتعد عن عائلته..

إنه راكب مدلل، هدية من ملك الى ابن صديقه. وهو ثمين حتى ليضن الأب به على ولده، والأخ على أخيه. أصيل السلالة، سريع العدو، ذكي، طويل النفس. كان ابن يوم واحد عندما دخل الملك الى الاسطبل، بكوفيته وعقاله وشارته الملكية، ووضع يده المباركة على جبهته الغائرة وناداه مرتين أو ثلاثا: هش هش يا براق. ومنذ ذلك اليوم قُيّد اسمه في السجلات بالبراق.

يقال أن نصف العالم قد جرى فتحه على ظهور أجداده، فلولا هذا النوع من الجياد ما كان صوت لا إله إلا الله ليصل الى الهند وسمرقند والأندلس، حتى قيل أن هذا الجنس يحمل بعضاً من بركات الملائكة ولهذا تراها تسابق الريح.

عندما وصلت الطائرة الى العاصمة وحطت في مطارها جرى للحصان استقبال ملكي، وكان في انتظاره ابن صديق الملك، بصحبة عدد من السائسين والأطباء البيطريين، وهو يحمل باقة من البرسيم الهولندي. ثم تقدم اليه وقال:

- أهلا وسهلا بك في بلادك الجديدة يا براق. ألم تتعب من الطريق؟

فأجابه الطبيب البيطري:

- لم نسمح بأن يعتريه الخوف يا سيدي. ولم نتركه وحيداً، لا أنا ولا رفاقي، حتى أوصلناه الى سيادتك.
- حسنا، بارك الله فيكم. تفضلوا كي يأخذوكم الى مقر إقامته، ستكونون ضيوفنا لأسبوع كامل ريثما تدلون بملاحظاتكم وتعلموهم أساليب التعامل معه وتعرّفوه عليهم.

كان البراق مدللا في بيته السابق لكنه غدا مدللا بسبعة أضعاف ذلك في بيته الجديد. أنه يطل عليه سبع مرات في اليوم ويمشط ناصيته بيديه. وعندما أوقد سائقه سيكارة من خلف ظهر فتسبب في عطاس البراق أمر بأن يحلق شعره ويلقى في السجن الانفرادي لسبعة أيام. أما صديقه الصائغ فقد جاء لتهنئته ووضع يده على صدره وقال:

- سيدي، حدوة هذا الجواد ستكون هدية مني.

ومضت الأيام فكبر البراق وتدرب على يد أفضل راكبي الخيل. فصار يثب على قائمتيه الخلفيتين حتى يعلو فوق رؤوس الرجال، ويحرز قصب السبق في مضامير السباق

متقدما على كل الخيول بعشرات الأمتار. وذاع صيته حتى ملأ الدنيا، وغلب على خيول الأمراء والملوك.

....

ثم جاءت الأيام السود، وضجت سماء العاصمة طوال شهر كامل بالبروق وأصوات الانفجارات، وارتجّت الجدران، وشبت الحرائق في الشوارع والدروب، وتوقفت العصافير عن الطيران. أنها نهاية الزمان: لم يبق أحد حوله، يجوع فلا يُعلِفه أحد، يعطش فلا يسقيه أحد، يخاف ويصهل ولا من مجيب. بطنه ضمرت، أضلاعه صارت تعدُّ، تشققت شفتاه من العطش. ما من سائس ولا طبيب يهب لنجدته مهما تعالى صهيله. ثم لم يعد صوته يُسمع خارجا من اسطبله.

بعد أيام وقف على رأسه عصبة من الغلمان السمر. حلوا لجامه وأخرجوه من الاسطبل. قال أحدهم:

- ماذا نفعل بهذا الحصان الضامر؟ فلنتركه ونذهب للبحث عن أشياء أكثر قيمة.

فقال ثانٍ أنا سآخذه. وفجأة تقدم منهم عجوز أدرد يرتدي جلبابا وسخا خلقا فقال لهم:

- دعوني آخذه. أنا بائع نفط.

ثم أخرج شيئاً من الكيس المتدلي على ظهره وقال:

- أعطوني الحصان فأعطيكم هذا.

فهز الصبي الفاحم السمرة رأسه ووافق على الصفقة، وعندما ابتعد العجوز قليلا تمتم مخاطبا أصحابه:

- إنه لابتوب جيد.

لم يكن البراق معتادا على ماء السواقي، لكنه صار يرتمي من شدة عطشه على كل مجرى قذر في الأزقة ويمضغ كل ما يراه من فضلات الخضرة والورق. وفي أطراف المدينة، تحت غرفة مشيدة من النايلون والصفيح والخرق، وجد الحصان نفسه في اسطبله الجديد. وها هو ذا مربوط الى عربة نفط يجرها جرا، ومع كل صيحة ثمة ضربة يتلقاها من عصا تلهب وركيه..

تقوست أكتافه، تلاصقت أضلاعه، ونهض بائع النفط ذات صباح ليجد الحصان ممدأ دون حراك فأبعده عن البيت كيفما اتفق.

وتعاونت عليه الجوارح والكلاب السائبة حتى لم تبق من جسده غير هيكل عظمي عار. وهناك على التراب.. ثمة عظمة ساق معروقه وحدوة صفراء تلمعان تحت ضوء الشمس.

حين تصير القطط نموراً

ستة أحذية مطاطية سوداء، بين ثلاث زوايا حدودية لثلاث ممالك للموت الأسود، تعلو وتغور فوق الثلج بإيقاع موحد. ستة شراشيف من خيوط ملونة خضراء وحمراء وصفراء تتراقص فوق لفائف السيقان والجوارب الخارجية السميكة. ستة بنادق كلاشنكوف روسية تتدلى من أكتافهم، ستة يشاميغ منقطة سوداء-بيضاء تُرى فوق رؤوسهم من بعيد. كل منهم يحمل ستة شواجير وزوج من الرمانات اليدوية التي تهتز فوق أوراكهم. ستة حقائب منسوجة في كل واحدة ست قبضات من الدقيق واثنتان من السكر وست قبضات من الزبيب. يضع الذي في المقدمة ناظوراً يتدلى من رقبته، ويخبئ الذي في المؤخرة في عُبّه مذياعاً من نوع سلفر. كل منهم يحمل على كاهله حملاً من الآمال البيض وأحلام الوطن القديمة. قمر يتوسط السماء في ليلة زمهرير، فتمتد ظلالهم أمام أقدامهم. إنها تشعرهم بقوة أعظم كما لو أنها رفاق لهم في خنادق القتال.

الثلج لا يستحي من ضيوفه، إنه يمد بساطه في هذا المضيق طيلة فصول السنة الأربعة. السماء والجبل والمضيق والوادي كلها قطعة من بياض، وهم، مثل سرب من الكراكي يتقدمهم واحد في كل مرة فيحطم الجليد بقدميه وركبتيه ويفتح طريق الحياة أمامه وأمام رفاقه. ثمة قطيع من الذئاب يسير معهم ويتبعهم على مسافة بضع عشرة خطوة أو أكثر. إنهم يمضون معا في هذا الوادي المليء بالمراقي والمهاوي والحواجز والمنعطفات، تقترب الذئاب بين الحين والحين وتكشر عن

أنيابها كأنها توشك على الانقضاض فينزل الرجال أحمالهم ويضربون مغاليق بنادقهم فتتراجع وتلوذ بالفرار. يبدو أنها تعرف هي الأخرى أسرار هذا الوادي. إنه نهر خنير[1] الذي لا يعرف المزاح. إن الجبال لتئن والمضيق يهتز ويتردد الصدى وتنهار الثلوج إذا ما رفعت عقيرتها بالعواء أو سعل واحد من القافلة فتنزلق كتل الجليد كالأنهار وتقتلع الاشجار وتكنس الصخور من طريقها حتى تغطي الربى والأغوار وتسويها معا.

تساءل حسين:

- كم بقي لنا للوصول الى قرية القطط؟

فأجاب آزاد ضاحكا من مكانه في المقدمة:

- انتبه لئلا تغفل عن "أصدقائك" يبدو أنهم يتضورون الليلة جوعا مثلنا تماما. إنك تقصد قرية "ماوته" وبيت الأم "روحافزة" أليس كذلك؟

وعلّق خليل من المؤخرة:

- ليت أن الكورد كانوا كلهم مثل هذه الأم في نبلها وبسالتها. لقد فرّ أهل قرى هذه المنطقة جميعا نحو تركيا وإيران في حين تصر أم عجوز ذات أولاد وبنات وأحفاد على العيش وحدها في هذه البرية وعدم مغادرتها لقريتها قائلة: إن قلبي لا يطاوعني على مفارقة أعزائي. هذه القبور التي وراء القرية تحتضن زوجي واثنين من فلذات كبدي. إن قبراً في خرائب

قريتي تحت وابل القنابل وأزيز الطائرات لأحب اليّ من قصور الأزقة المزججة.

- ولكن من أين جاءت كل تلك القطط التي يزدحم بها منزلها؟ وكيف تدبر لها طعامها؟
- لقد خربت القرية وهرب سكانها وبقيت هي فيها فقصدتها قطط القرى المجاورة. في الأماسي عندما تشعل المصباح في كوخها تمنح الحياة للمنطقة بأسرها فيصبح مثل فندق على الطريق يستريح فيه الرفاق، وقد رأيت كيف بتنا فيه في المرة السابقة.

وتقدم حسين ليرجع شيرو الى المؤخرة. وأقترب الصباح.

- أين أصدقاؤك يا حسين وأين ذهبوا؟ لا يبدو لهم أي أثر. (وأضاف مداعبا) ربما يئسوا من النيل منا فعادوا الى أوجارهم. نحن أيضا تجمدنا من البرد. أنا لا أكاد أقف علي قدميّ، دعونا نمضي من هذه الاستدارة نحو بيت الأم روحافزه كي نسترد أنفاسنا.

طرق شيرو الباب مرارا وهتف بصوت مرتفع:

- أماه، هل أنتِ مستيقظة، افتحي لنا، نحن أولادك البيشمركة.

لكنه لم يتلق جوابا فقرّب رأسه الى الشباب ونظر وتمتم قائلا:

- مصباحها مطفأ. هل تعتقدون بأن أولادها جاؤوا وأخذوها معهم؟
- لا أظن هذا فهي لا ترضى بالرحيل. لنفتح الباب. ربما حدث لها مكروه لا سمح الله.

وما أن فتحنا الباب حتى رفعت عشرات القطط المتجمعة فوق جثتها رؤوسها مثل النمور وقد اصطبغت شواربها بالدماء وأخذت تتفرس فينا بغضب وقد هيأت أنيابها ومخالبها للهجوم (2)

(١) خنيّره: اسم وادِ في جبل قنديل فيه نهر متجمد في كل الفصول وممر واحد فقط للعبور الي ايران او المثلث الحدودي لكن يجب على المسافر ان يقطع النهر ثلاثه عشرة مرة لان تعرجاته في الوادي لولبية. وقد سمّاه البعض بوادي الموت لكثرة من هلكوا فيه بردا وكان على الذين يريدون عبوره أن يأخذو بعض السكر أو الحلوى لتزودهم بالحرارة والطاقة اللازمة.

(٢) هذه قصة شبه واقعية حدثت عام ١٩٧٦ لعجور آوت قطط ما حولها من القرى في منطقة المثلث الحدودي العراقي التركي الايراني بعد تهجير سكانها.

زبيب

كان يحب الزبيب كثيراً. وتضطرب معدته ويتعكر مزاجه طوال النهار إذا لم يتضمن إفطاره دبس الزبيب، خصوصاً في فصول الشتاء. في كل خريف، يشتري "مَنّاً" من التين المجفف وأكيالٍ من الزبيب الأسود والأصفر وأصناف المؤن الحلوة، وهو، الى ذلك، يعشق القرع العسلي الأصفر؛ فقد كان يكبُر زوجته بعقدين من السنوات، ولا أعرف من أدخل في رأسه أن هذه المؤن تزيد الفحولة.

لكنه، في هذا الخريف، لم يهنأ بزبيبه: كانت الثورة قد حمي وطيسها، وانتشرت شائعات بأن كل بيت في السهل تعثر فيه الحكومة على زبيب أو أية محاصيل جبلية سيحل عليه غضب الله ويُتهَم بمساندة الثوار بدعوى أن أصحابه يقايضون حنطتهم بزبيب الجبال وأن من يتاجر مع العصاة ويبيعهم حنطته مذنب مثلهم.

لكنه يهزأ من هذه الأقاويل ويهز رأسه قائلاً:

- يخرب بيوتكم! إن عقولكم لأصغر من عقول العصافير! كيف تدوس الحكومة على كلام الله؟ ألم يقل في القرآن الكريم (والتين والزيتون)؟ ثم ينظر الى الملا ويسأل: أليس كذلك يا مولانا؟

فيجيبه الملا:

- - نعم يا عُزير، أنت على حق. لقد ورد ذكر التين والزيتون، والأعناب أيضا في آيات أخرى. لكن الزبيب والدبس لم يرد ذكرهما!

- هل يعني هذا أنك تحرّم بيع الزبيب وشراءه؟
- أنا لم أفعل ذلك يا فلان، لكن هذا قرار الحكومة.
- قسما بالقرآن الذي تتلوه، سأظل آكل الزبيب سواء كان ممنوعاً أم لا. والله كريم عندما تأتي قوات الحكومة!

لم يمض أسبوع حتى نزل نمور جبل (بيخير) وهجموا بثلاثمائة مقاتل بيشمركه على عين زاله ليشعلوا النار تحت أقدام السلطة الحاكمة. ولقت قريتهم عاصفةً هوجاء. لم يسمحوا للعيال والصغار ولا للأغنام والحيوانات بالخروج من القرية. وقلبوا بيوتها واحداً واحداً عابثين مفتشين. وأرتفع عويل العجائز والأطفال الى عنان السماء. وعندما شبت النار في سقف بيت عزير غطى صراخ صغاره على كل الأصوات، فيما أمسكه أحد الضباط من ذراعه بشدة وراح يهوي بالخيزرانات على أردافه وهو يصرخ به:

- ها.. أنت لم ترَ البيشمركه؟ من أين جاءت إذن أعواد الزبيب التي على سُفرتكم؟ هل ستنكر أنكم تأكلون الزبيب؟!

كان عزير يرتعش كالطير بين يدي الضابط، وكاد أن يجيبه بأن الله نفسه قد تحدث عن العنب وأنه ليس محرَّما، وأن أسواق الموصل وبغداد مليئة بالزبيب وغيره من المؤن الجبلية، لكن الخيزرانات قطعت عليه الدرب فلبث كالأخرس ولم يستطع أن يصل شفته العليا بالسفلى.

وبينما هو في هذا الحال، حانت منه التفاتة فوقعت عينه على اللهيب الذي يتصاعد من بيته كالزوبعة فابتلع ريقه بصعوبة وقال في نفسه:

- حسنٌ أن الزبيب المدفون تحت الأرض لا تلوحه النار!

وركله الضابط ثانيةً على صدره فألقاه أرضاً وصاح بمن حوله:

- إذهبوا واجلبوا لي واحداً يعرف العربية كي يسأل هذا الناشف الدماغ من أين جاء بالزبيب.

وجاء الملا مهرولا وهو يكاد يسبق الجنود وقد أمسك قرآنه بيده عازماً أن يقول للضابط:

- أقسم بهذا القرآن بأن هذه العائلة لا علاقة لها بالعصاة.

لكنه وصل متأخراً الى بيت عزير، ربما لأن الأخير كان يخادعه ويقسم زكاته نصفين: نصف للملا ونصف لزمّار القرية! غير أن قلبه احترق عليه عندما رآه على هذا الحال فطفق يقول بعربية طليقة:

- لماذا يا سيدي تفعل هذا بالمسلمين؟ نحن في هذه القرية أصدقاء لحكومتنا وها أنت ترى أن كل بيت فيها يرفع علماً أبيض على سطحه. حتى الطائرات تعرف ذلك.
- إسأله من أين جاءبالزبيب، وكيف وصل الى بيته إن لم يكن متعاوناً معهم.

- أنا على استعداد لأن أحضر لك أكثر من شاهد بأن هذا المسكين اشتراه من الموصل. أسواق بغداد والموصل مليئة بهذه المنتجات الجبلية، فلماذا هي حلال ويسمح بها القانون على أهل العراق كلهم وممنوعة ومحرمة علينا في قرانا، علماً أن سنة كاملة مضت منذ أن مُنِع عنا الشاي والسكر والأرزاق. لا أعرف ما ذنبنا؟ لم لا تجمعنا كلنا وتحرقنا عن بكرة أبينا؟

وأطرق الضابط قليلا حين سمع حديث الملا، ثم مد يده الى ساعد عزير ورفعه عن الأرض ونفضه نفضا وقال:

- لا تتناول زبيباً بعد اليوم. هل فهمت؟ استعض عنه بالتمر فكل تمرة أكبر وأطيب من الزبيبة بعشر مرات.

فهمهم عزير بصوت متكسر:

- قل له يا مولانا أنني لا أحب التمر، فهو يسبب لي الإسهال!

قصيدةُ بكماء

بعد اسبوع كامل من الإعلانات، صعد الشاعر المشهور على خشبة المسرح ورفع يده محييا الجمهور. توقف لبرهة ساكتا أمام الميكروفون ثم جال بنظره على الجمهور. وفجأة وضع يده على فمه واحمر لونه ثم اصفرّ ارتجف ورفع رأسه لينظر الى السقف ثم انتبه الى نفسه وتطلع الى جانبي المسرح وأحنى رأسه ناظرا الى الأمام وتراجع قليلا ثم تقدم ثانية ليلقي نظرة حزينة كسيرة على جمهور الحاضرين وأزاح يده عن فمه وانحنى للجمهور ونزل عن خشبة المسرح وتوارى.

نظر الجمهور الذاهل بعضه الى بعض وهم يتساءلون عن مغزى ما جرى. وفجأة شرع أحد الجالسين في قعر القاعة بالتصفيق الحار وهتف بصوت مرتفع:

- هذه أجمل قصيدة حداثوية، قصيدة بلغة الجسد!

في اليوم التالي ظهرت في الجريدة مقالة طويلة لناقد معروف بعنوان (قصيدة بكماء) شرح فيها كل حركات الشاعر فقال إن تلك التحية ثم وقوفه أمام الجمهور وقد وضع يده على فمه ليست إلا إشارة الى غياب حرية الرأي، وإنه عندما ثبت عينيه على الجمهور ثم اصفر وارتعش إنما كان يبعث الى شعبه الرعديد رسالة ملؤها الشكوى. أما عندما استدار ونظر وتطلع الى زاويتي المسرح فقد كان يلمح الى الانتهازيين الذين يختبئون وراء الستائر وفي الزوايا. وعندما نظر الى خلفه كان يرمز الى غياب الدعم والإسناد. أما احمرار وجهه فهو تعبير عن غضبه الشديد، مثلما كان تطلعه الى ما بين

قدميه إشارة الى قيمة أرض بلاده وقدسيتها. وأخيرا فإن نظره الى المصباح المعلق فوق رأسه لم يكن سوى رمز للغد المشرق لبلادنا.

عندما قرأ الشاعر تلك المقالة النقدية غرق في ضحك متواصل كاد أن يقف قلبه معه، ثم أخذ يتمتم قائلا لنفسه:

- خرّب الله بيتك! لقد كنت ساعتها أعاني من وجع شديد في أسناني منعني من الإلقاء، فمن أين جئت بالقصيدة البكماء ولغة الجسد هذه؟!

كفن جدتي

كانت عجوزاً مخضرمة، عاصرت قرنين من الزمان. ذات جسم صلب كالرجال، فلقد نسيت، منذ أيام خط تلفسني[1] انها امرأة، وأخذت تتصرف كما الرجال، وصارت الأم والأب. كانت تحب الأحذية ذات الأربطة، وترتدي في الشتاء، مثل الرجال بالضبط، معطفا طويلا يتهدل على جسدها. مضيفها كان ديوان القرية الكبير وفيه تحل كل المشاكل وتبحث كل الامور، فهي الشفيعة وهي الملاذ في كل قضية شائكة، وهي القابلة التي ولد على أيديها أغلب أطفال القرية، وهي غاسلة من يموت فيها من نساء وأطفال. كانت تقدم على الأمور مثلما يفعل الزعماء، وتعشق سيدة الهند انديرا غاندي، وتقول:

- أنها أختي، وإذا لم تصدقوا فانظروا الى تشابهنا في الأنف والشعر والقامة.

ولهذا ارتفع ضغطها يوم استشهدت أنديرا ووقعت نصف مشلولة، وبلغ بها الأمر أن أقامت لها مجلس عزاء في بيتها، ومن فرط حبها لها سمّت اثنتين أو ثلاثا من حفيداتها باسم أنديرا.

كان الحزن والسأم يتملكانها يوماً بعد يوم. حجّت وطافت بالحجر الأسود ثلاث مرات، وفي كل مرة تعود بلفافة من قماش أبيض وقربة من ماء زمزم وتقول لمن حولها:

- كفنوني حين أموت بثياب الحج واغسلوني بماء زمزم.

صارت تطلب الموت والموت يدير لها ظهره. في كل يوم ترفع كفيها بعد الصلاة وتدعو:

- إلهي، استرجع أمانتك. كفاني ما عشت.

لم تكن تستطيع الصلاة بصمت، وهي، مثل ملالي الكرد، تفشل دائماً في التفريق بين المؤنث والمذكر، وتثير الصخب بصوتها الرفيع المرتفع مثل قامتها. كانت المسكينة تلفظ الكثير من كلمات الصلاة بصورة معكوسة، أما أنت فقد كنت تضحك كثيراً حين تصل الى التحيات، إذ لم تعرف قط كيف تتلوها، فتكتفي بأن تردد:

- هوي هوي يا نبي جعلتُ فداك!

فيحتقن وجهك من الضحك مما يرغمها في كثير من الأحيان على التوقف عن صلاتها لتعنفك:

- هه هه هه يا قبيح! أيها الكافر الغليظ. كان يوماً أسود يوم أرسلتك للمدارس!

وحين تفرغ من صلاتها تقول:

- هَبني يا رب ميتة مستورة.

في إحدى المرات اعترضتها قائلاً:

- الموت هو الموت يا أماه! إنه باي باي. سوف تصبحين وليمة للديدان والصراصير. لكنك مع الأسف لستِ غير جلد وعظم وبقايا لحم هزيل، ولهذا لن تجني الديدان والصراصير شيئاً من موتك. علام إذن

تطلبين من الله في كل صلاة ميتة مستورة؟ وهل هناك ميتة غير مستورة؟ إنه الموت والسلام!

- أستفوللا، أستفوللا. نعم يا ولدي، الميتة المستورة هي التي يموت فيها الانسان بين أهله وناسه وفي فراشه ومطرحه، ويلفونه بالأكفان ويديرون وجهه شطر القبلة. أما الميتة غير المستورة فهي التي يغادر فيها المرء دنياه دون قبر وكفن، دون تلقين وياسين، دون عشاء للمعزين ودون توزيع خيرات لثلاثة أيام، ودون اسبوع وأربعين ورأس سنة.

كنت تمازحها أحياناً وتقول:

- أنتِ يا جدتي من بقايا زمان دقناووس، وربما تتذكرين زماناً لم يكن الله قد خلق الجبال بعد، وربما رأيت الاسكندر ذا القرنين بِأم عينيك.

فتضحك وتجيبك:

- كلا يا ابن البقرة. لم أر الاسكندر لكن الذين رأوه حدثونا عنه وقالوا أنه كان ذا قرنين في رأسه.

ثم تعود لتقول:

- إلهي. عجّل باسترجاع أمانتك! لم أعد أطيق دنياي. رحل الأخلاء جميعا ولم يبق منهم من يؤنسني. هذه ليست الدنيا التي عشت وكبرت فيها، أنها دنيا أخرى.

فيستشيط قلبك وتقوم لتعانقها وتضمها الى صدرك وتغرس أصابعك في شعرها الشائك وتقول:

- آه يا جدتي. إنك لملاك. هذه الدنيا ليست باقية إلا إكراماً لمن مثلك. أنتم الخير والبركة.

وتجيبك بين شهقاتها:

- كفاني يا ولدي. وهل هذا زماني؟ إني لأتذكر حرب المسقوف. أتذكر إبادة الأرمن. أتذكر المجاعة الكبرى وحين لم ينج من الطاعون أحد في ديارنا غير طفلين.

وترفع يديها وتعود لتقول:

- إلهي استرجع أمانتك وأكرمني بميتةٍ مستورة!

وتسألها:

- أخبريني يا اماه: هل رأيتِ الثلج الأحمر حقاً ؟ كيف صار أحمر؟ ولماذا؟
- لا أعرف كيف حدث ذلك. لا أتذكر جيداً. كانوا يقولون أنه الثلج الأحمر. لم يكن غامق الحمرة كبراعم نيسان، لكنه مثل شمس الغروب. قالوا إن الله قد غضب على عباده لكثر ما عمَّ الفسق والفجور على وجه الأرض، ولكثر ما انتشر الحكام الظالمون وأريقت الدماء. ولهذا حذر الله العباد بأنه سيهلك الأرض إذا لم يستقيموا. فديتك يا ولدي؛ عد الى رشدك ولا تترك صلاتك يا خروفي الصغير!
- - سأفعل إن شاء الله.
- نعم يا ولدي. إني لأغبطك لأنك تعرف العربية وتستطيع الإجابة على أسئلة المنكر والنكير. أما أنا البائسة فلا أعرف كلمتين من لغة الآخرة. زرت بيت

الله ثلاث مرات، بشق الأنفس وبكدِّ أظفاري وبالاستدانة وبحياكة السجاد والجوارب ، ولم يبق لي غير ثلاثة أذرع من قماش الكفن وفنجانين من ماء زمزم وضعتها في ذلك الصندوق الأزرق تحت السلم.
فديتك يا ولدي؛ حين أموت كفّن جدتك بها وأسكب عليّ ماء زمزم"

كان هذا الحوار يدور في رأسك وتستعيد الشريط في كل خطوة تخطوها. وعندما هطل الثلج الأسود خلال الهجرة الكبرى[2] كنت تحملها على ظهرك مثل جذع شجرة وهي تبكي وترتجف مثل طفل أضاعه أهله. كان فمها متجمدا مطبقا ولم تفهم من بين طقطقة أسنانها إلا هذه الكلمات:

- هذه نهاية الدنيا. ها أنذا أرى الثلج الأسود أيضاً[3]

في مضيق "هَفت تَنون" باغتها الموت وتجمدت يداها ورجلاها. لم يكن في يدك إلا أن تضيف شاهدة صخرية أخرى الى شواهد القبور التي تناثرت هنا وهناك، ثم تلتقط بعضاً من أوراق البلوط الذابلات وتستر بها جدتك، وأن تجعل من ثوبها وقفطانها كفنا لها ومن دموعك الحمر ماءَ زمزمها، وأن تعلّق مسبحتها في عنقك تذكارا لها، لتيمم وجهك شطر الجبال وتصرخ بالأفلاك بدلاً من تلقينها.

وكان صوتك يختلط بهدير نهر "كشاني". ويردد المضيق الصدى:

- آهٍ أيها الفلك الدوار.. آهِ يا فلك!

(١) خط تلفسني: خط دفاعي بناه الانكليز جنوبي دهوك في مواجهة الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى.

(٢) هي الهجرة المليونية لكرد العراق باتجاه دول الجوار خوفا من بطش صدام حسين بعد انتهاء حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ حيث مات الكثيرون من الجوع والبرد الذي داهمهم في أواخر الربيع.

(٣) أحرق صدام حسين حقول النفط الكويتية قبل انسحابه منها فغطت البلاد غيوم أنزلت مطرا وثلجا أسود مشبعا بأبخرة النفط المحترق.

لعبة الاحتمالات

هذه ثاني مرة تزور فيها زاخو. في المرة الاولى جئت اليها بصحبة والديك لمشاهدة جسر دلال ونهر الخابور وقضيتم معا بضعة أيام طيبة من العطلة الصيفية. ظل والدك يمتدح كباب زاخو أمام زملائه المعلمين حتى بعد مرور عدة أعوام، أما أمك فقد أرت زميلاتها المعلمات صورها فوق جسر دلال وعلى ضفة الخابور، وكان أصدقاؤك ينظرون اليك شزرا قائلين:

- ولم لا يفعل ذلك؟ أبوه مدير وأمه معلمة وهو الأول دائما على صفه!

لكنك شعرت بضيق شديد وخفق قلبك بقوة عندما وصلت الجسر في منتصف المدينة وتأملت الخابور، وتساقطت دموعك في أمواج النهر قطرة في إثر قطرة. وتذكرت أباك وهو يقود سيارة الفولكسواجن الشبيهة بالسلحفاة، وقلت في نفسك طوبى لتلك الأيام. كيف كنا وكيف صار خبز الشعير حسرة علينا؟

وغصت في ذكرياتك، ورنَّ في أذنيك صوت بكاء أمك وهي تترجاك:

- الى أين تريد الذهاب يا ولدي؟ أنت ابننا الوحيد، فلمن ستتركنا نحن الطاعنَين في السن؟ لا تقارن نفسك بالآخرين. البعض لديه أربعة أبناء أو سبعة فإذا ما غاب واحد منهم تسلوا عنه بالآخرين. لا أحد يموت

جوعاً. هل ترك الله دودة تحت حجر دون رزق كي ينسانا؟

اغرورقت عيناك بالدموع. لقد مات كل شيء في هذه البلاد التي أشاحت الحياة عنها: الحرب الأهلية، الجوع، الارهاب، تهديدات الأعداء، الحصار الاقتصادي والبطالة. مسحت عينيك وقلت لنفسك:

- لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه. أما الموت أو بلوغ جنة الأحلام: ثمان ساعات من العمل، كل ساعة بعشرة دولارات، كل دولار يعادل سبعين دينارا، فضلا عن سعادة الحياة الاجتماعية وحريتها: كل ليلة في مرقص في صحبة امرأةٍ هيفاء طويلة العنق. يجب أن أرحل. الحياة فرص والفرص لعبة حظ لا يفوز بها غير الجَسور.

وغرقت ثانية في التفكير وتقليب الاحتمالات:

- أنا لا أعرف أحداً في هذه البلدة، وما معي من نقود لا يكفي لثلاث وجبات وأجرة مبيت، لكنهم يقولون أن أحدا لا يبقى دون عمل في هذه المدينة، ليتني عثرت على مكان للعمل.

نكست رأسك وأنت تتقلب في هذه الأفكار. وفجأة سمعت وأنت تمر بأحد المقاهي صوتاً مألوفاً يناديك:

- زانا.. كاك زانا.

فالتفت لتجد صديقك من أيام الكلية يتقدم نحوك ويحتضنك بحرارة ثم يمسك بيدك ولا يتركك حتى يقودك الى المقهى. وعاد الدم الى وجهك أخيرا وهدأت أنفاسك.

- إيه يا كاك زانا متى جئت من مدينة عمري؟
- وصلت صباح اليوم.
- أهلا بمقدمك. وكيف حال السليمانية؟
- كما المعتاد.
- هل جئت للتجارة أم تنوي السفر الى أوربا؟
- جئت بنيّة العثور على عمل وجمع بعض النقود ثم السفر الى أوربا.
- حسنا، وماذا ستعمل؟
- أي عمل يدرّ نقوداً.. أي عمل. لكنك لم تقل لي ماذا جاء بك الى زاخو.
- أنا أيضا أفكر مثلك وقد مضى شهر وأنا أعمل هنا، لكنه عمل شاق وخطير. في كل ليلة يُقتل، عفوا أعني يستشهد ما بين خمسة عشر وعشرين شخصاً. يسمونهم هنا شهداء الحمّالين ويدعوهم البعض شهداء السجائر. الغريب في هذه المدينة وجود عشرين صنفا من الشهداء: شهداء الحرب الأهلية (قتال الأخوة)، الشهداء الشرعيون، شهداء علب السجائر، شهداء السقوف، شهداء السطوح، شهداء قطاع الطرق، شهداء ملاعبي السكاكين، شهداء جلود المواشي وأخيرا ظهر صنف جديد هم شهداء الأمعاء!
- ماذا.. ماذا تعني بشهداء الأمعاء؟

- نعم يا أخي، قبل عدة ليالٍ كنا اثني عشر شخص ننقل بضاعة أحدهم، وكانت كلها عبارة عن أمعاء أغنام. لكننا نُهبنا عشر مرات، في الأولى طاردتنا الكلاب بسبب الرائحة، في الثانية نهشتنا الزنابير والذباب، في الثالثة رجال الامن والشرطة، في الرابعة مقاتلو حرب العصابات، وفي بعض المرات يقطع المهربون الطرق على بعضهم البعض وينهبونهم والأسوأ منهم جميعا هم الجندرمة الترك. حالما دخلنا الأراضي التركية في ساعة متأخرة من الليل حتى لم نعد نرى أنفسنا من غزارة طلقات الرشاشات ومدافع البي كي سي. استشهد ثلاثة منا وجرح رابع وأظن أن قائدنا وقع في يدهم.
- يا ويلي! إن جبهات الحروب لا يسقط فيها هذا العدد من الضحايا!
- أتعلم؟ يقولون أن أكثر من سبعمئة شهيد سقطوا فوق هذه الحدود عدا من فقدوا أو القي القبض عليهم. هذه هي مهنتنا لكنها والحق يقال تدر أجرا جيدا فأجرة الليلة الواحدة تبلغ مئة دينار إذا وصلت البضاعة بسلام ودون مشاكل الى يد التجار الترك.
- هذا مبلغ جيد لكن الأمر أقرب الى ساحة حرب. غير أن الانسان لا يعيش ولا يموت غير مرة واحدة. على المرء أن يعيش كما البشر أو يرحب بالموت. أين مقهى المهربين؟
- هناك، في مقهى "فتّو" إنهم يسمونها سفارة أوربا بأسرها. لا أظن بوجود سفارة أو قنصلية في الأرض

ترسل هذا العدد من المسافرين الى أوربا. ذاك الذي تراه، صاحب الجزمة البيضاء التي تجعله يشبه كلاب الصيد الطويلة الرفيعة هو أفضل المهربين. إنه يقود الناس مثل قطعان الأغنام ويعبر بهم الحدود ثم يوصلهم الى اليونان في غضون اسبوع واحد.

وسكت صديقة لبرهة وجيزة ثم ابتسم فجأة وقال:

- هل تذكر يا أخي يوم رفعنا قبعاتنا في حفل التخرج وقلت لي: سوف نلتقي بعد أعوام بإذن الله بصفتنا قاضيين لنشيع العدل والقانون في مجتمعنا، لكننا غدونا الآن مهربين.. ويا ليتنا كنا مهربين حقيقيين، بل مجرد حمالين لدى المهربين.. إيه يا دنيا ماذا حدث لنا؟ لم نكن لنصدق بأننا نتخلص من الغربان ونتمتع بحريتنا، لكن أنظر: ها نحن الآن نقف في طوابير للهرب من بلادنا.

في اليوم التالي كان يقف بعيون باكية أمام دكان حفار شواهد القبور ويقول له بصوت واهن:

- اكتب على قطعة الرخام: شهيد الجلود، المحامي زانا. استشهد على الحدود التركية.

أم

في ذلك الصباح الشتوي القارس لبست في قدمي زوجين من الجوارب الثخينة. ورغم ذلك كانت أصابعي توشك على التجمد داخل حذائي. وكان البخار الخارج من أنفي يتحول من فوره الى صقيع متصلب. الخرخشة التي تصدر من إطارات سيارتي كانت تخبرني أن الجليد يتكسر من تحتها.

قبل أن أصل الى الشارع المبلط مر بي عدد من السيارات تتقدمها سيارة بك أب تسير على رسلها مثل سيارة عرس وقد جلس في حوضها عدد من الرجال الملتفعين باليشامغ السوداء. ثمة طفل حافي القدمين حاسر الرأس يعدو في إثرهم وقد تجمدت دموعه وما سال من أنفه فوق ذقنه حتى صار شبيها بعرف يتدلى تحت منقار ديك رومي.

كان يرتجف ويصيح:

- توقفوا. الى أين تأخذون أمي؟ التراب في باطن الأرض بارد فلا تدفنوها فيه!

من قصص الأنفال*

أما من قُتات خبز؟

كنا في الخريف. بعض الزهور تدنو من نهاية أعمارها وبعضها ما زال في برعمه. الزهور أيضا مثل البشر، بعضها يشيخ وبعضها يتفتح للتو. صديقي الذي لم تعرف الابتسامة طريقها الى شفتيه منذ عام ١٩٨٨، هذا الذي كلما نظر الى الجبال غدت أحزانه أثقل منها وغرقت عيناه بالدموع، فيعبس ويقطب جبينه ويستنزل اللعنات على الجبال التي لم تستطع أن تأوي فلذات كبده وسبعة وعشرين فردا من أسرته.

إنها ليلته الثانية منذ عودته الى البلاد. حدائق مضيق دهوك تفوح في هذا الوقت من السنة برائحة التفاح. لا يُعرَف إن كانت عطور تلك السيدات اللاتي يجلسن خلفنا وتتغلب ضحكاتهن على أصوات الموسيقى وكل ما يدور من أحاديث، أو إنها ليست بقايا غازات الخردل والسيانيد. أنا سعيد لأنني ألتقي بصديقي بعد أربعة وثلاثين عاما. أتذكر كيف جلسنا خفية ولأول مرة في مكان كهذا. سألنا النادلُ الشاب:

- تفضلا. ماذا تشربان.

كلانا لم يعرف ما يطلب، أما من جهتي فلم أسمع من قبل غير كلمة البيرة. لكن النادل عاد وسألنا عن صنف البيرة التي نريدها، هل هي فريدة أم شهرزاد[1] وقبل أن أجيبه سارع صديقي الى القول:

- اجلب لنا قنينتين واحدة شهرزاد وواحدة فريدة.

وأفرغنا القنينتين دون أن نفرق بين هذه وتلك.

ها نحن جالسين من جديد الى مائدة مشابهة. بعد تلك السنوات الطوال؛ بوجهين غزتهما التجاعيد ورأسين عاريين إلا من بقايا شعرات رمادية نافرة. ودنا منا مرة أخرى نادل شاب وقال تفضلوا .فنزع صديقي ساعته اليدوية ونظر الي بوجهه المحزون ثم رسم ابتسامة باهتة على شفتيه وسألني:

- ما كان اسمهما؟ آه، فريدة وشهرزاد. ليجلب لكل منا واحدة.

لم أقل شيئاً لكن النادل الشاب قال ضاحكاً:

- أعذرني يا عم لم يعودا موجودين؟
- لماذا؟
- لقد تزوجت فريدة واختطفت شهرزاد.

لكنه تراجع بعد أن رأى طرفته لا تضحك أحدا سواه وتقابل بالبرود والعبوس ثم قال:

- هناك الآن أنواع جديدة: أفس، هنيكن، توبوك..

كان، بين فينة وأخرى، يحفر في ذاكرته كمن يحفر بئرا بإبرة ويتذكر أسماء بعينها.

- ما أخبار فلان؟
- البقية بحياتك. لقد أعدموه.
- هل يمكننا غدا أن نزور لزكين؟
- البقية بحياتك. لقد فقد وضاع أثره.
- هل جانو على قيد الحياة.

- لقد أعدم رميا بالرصاص في الساحة العامة، أمام أنظار الخلق.
- وأين سينَم؟ هل تزوجت أم لا؟
- كلا. لقد اختطفها واحد من رجال الأمن ولا يُعرَف لها مكان.

وأخذ نفسا عميقا ثم مال بعنقه صوب النهر مبتلعا غصته. والتمعت على خده دمعة هوت من عينه تحت أنوار المصابيح. حاولت أن أغير مجرى الحديث لأنتشله من أحزانه لكنه هتف فجأة بصوت مرتفع:

- ما طعم بقايا الخبز؟ أهي لذيذة حقا؟
- لا أعرف. كل شيء لذيذ لدى من يتضور جوعا.

وتسرب من بين يدي وغرق في نوبة من البكاء وصاح:

- جمال يا ولدي، كم كنت جائعا في ذلك اليوم الأسود. قلت لي أما من فتات خبز أسد بها رمقي؟ أريد فتاة خبز. ليت رقبتي اندقت في تلك الليلة. لم أستطع ان أدبر ذلك حتى عدت الى خرائب قريتنا المحترقة المحاصرة بالعساكر وتنقلت بين تنانير الخبز باحثا من أجلك عن أية بقايا أو خبز محروق حتى عدت فوجدت أن تلك الوحوش الكاسرة قد افترستك مع اخوتك وأخواتك وأمك وأبناء عمومتك.

*عمليات الأنفال أو حملة الأنفال هي سلسلة من عمليات الإبادة الجماعية التي قام بها نظام صدام حسين سنة ١٩٨٨ ضد الأكراد في إقليم كردستان وأوكلت قيادتها الى ابن عم صدام المعروف بعلي الكيمياوي.. شملت حملة الأنفال استخدام الهجمات البرية والقصف الجوي والتدمير المنظم للمستوطنات والترحيل الجماعي وفرق الإعدام والحرب الكيماوية وقد دمرت خلالها ٤٥٠٠ قرية وأعدم مئات الألوف رميا بالرصاص أو دفنوا أحياء في صحارى جنوب العراق.

(١) نوعان من البيرة المحلية التي لقيت رواجا كبيرا في السبعينات والثمانينات.

عن الكاتب

اسماعيل سليمان هاجاني

ولد في محافظة دهوك-كوردستان العراق عام،١٩٦٣

درس سنتين في جامعة بغداد كلية التربية قسم اللغة الانكليزية بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٨٨ قبل أن يتركها ليكمل دراسته في قسم الأدب الانكليزي بجامعة دهوك.

نال شهادة الماجستير في الادب الكوردي من جامعة آرتكلو في مدينه ماردين التركية.

بدأ الكتابة شاعرا في بدايات الثمانينات.

من أعماله المنشورة:

ليله هروب الملائكة. منشورات اتحاد ادباء الكورد-دهوك-٢٠٠٦

١. ميدان الكلاب. منشورات اتحاد ادباء الكورد-دهوك-٢٠٠٨
٢. قطط استنبول هزيلة ايضا. منشورات اتحاد الادباء الكورد-دهوك-٢٠١٠

٣. نشوة الفوز. منشورات روناهي- دياربكر-تركيا-٢٠١١

٤. كفن جدتي. منشورات الادباء الكورد-دهوك٢٠١٢

٥. آهات الكمنجة. مطبعة هاوار-دهوك-٢٠١٩

ترجمت له الى اللغة العربية مجموعة قصصية باسم يوميات ميت- ترجمة سامي الحاج-اربيل- ٢٠١٣

ترجمت له مجموعة قصصية الى اللغة الفارسية من قبل المترجم عزيز نعمتي في طهران-مطبعة بينوس٢٠٢٠

له بانتظار الطبع:

خان ميرو - رواية طويلة

آسكا جودي-مجموعة شعرية

خارطة كوردستان في اطلس المجانين-مجموعة مسرحية.

دراسة عن ادب السجون وهي اطروحته لنيل شهادة الماجستير.

سوسيولوجية اللغة الكوردية-دراسة.

كتب فلما سينمائيا طويلا باسم سميان من اخراج محمد جانو
شارك في كثير من المهرجانات.

عضو نقابة الصحفيين الكورد واتحاد الادباء الكورد (عضو
الهيئة الادارية لدورتين متتاليتين)
يعمل مديرا لدائرة الثقافة والفنون في قضاء سميل-دهوك.

عن المترجم

ماجد الحيدر

قاص وشاعر ومترجم

ولد في بغداد عام ١٩٦٠ لأسرة كوردية فيلية.

تخرج من كلية طب الأسنان/ بغداد ١٩٨٤

يكتب ويترجم بالعربية والكوردية والانكليزية.

من أعماله المنشورة :

١. النهار الأخير (مجموعة شعرية) – بغداد ٢٠٠٠
٢. في ظل ليمونة (مجموعة قصصية) - بغداد ٢٠٠١
٣. ماذا يأكل الأغنياء (مجموعة قصصية) - بغداد ٢٠٠٢
٤. مزامير راكوم الدهماء وقصائد أخرى (مجموعة شعرية) – بغداد ٢٠٠٢
٥. نشيد الحرية وقصائد أخرى لشيللي(ترجمة) -دار الشؤون الثقافية-بغداد٢٠٠٤
٦. الإيدز بين المناعة والفيروس- دار الشؤون الثقافية- بغداد ٢٠٠٤

٧. عبور الحاجز-قصائد من الشعر العالمي (ترجمة) – دار المأمون-بغداد ٢٠٠٧

٨. ناجون بالمصادفة (مجموعة شعرية) – دار سبيريز-دهوك ٢٠٠٩

٩. ضحك كالبكاء (كتابات ساخرة) – منشورات ملتقى الأهالي-بغداد-٢٠١٠

١٠. الثلج والنار والأغنيات-مختارات من شعر مؤيد طيب (ترجمة) – دار الثقافة والنشر الكوردية- بغداد ٢٠١٠

١١. مالاني (قصص قصيرة بالكوردية) – منشورات اتحاد الأدباء الكرد-دهوك ٢٠١٢

١٢. The Psalms of Rakoom the Black and Other Poems-Proclaim Press-Pittsburgh-P.A.-USA

١٣. Yes, It's Me- Selected Poems-Union of Kurd Writers-Duhok-2014

١٤. في الذكرى السنوية لرحيلي (قصص قصيرة) – وزارة الثقافة – بغداد- ٢٠١٤

١٥. غلطة من هذه؟ (مجموعة شعرية) – مطبعة جامعة دهوك-دهوك ٢٠١٥

١٦.ستأخذنا الريح- مائة قصيدة وقصيدة من الشعر النسوي العالمي (ترجمة)-الهيئة السورية للكتاب-دمشق ٢٠١٦

١٧.الملاك الألثغ الصغير (قصص) – دار أمل الجديدة – دمشق ٢٠١٦

١٨.مؤيد طيب، قصائد مختارة (ترجمة) – دار ومكتبة جزيري –دهوك ٢٠١٦

١٩.يهودا عميخاي الله شفيق بأطفال الروضة وقصائد أخريات ليهودا عميخاي (ترجمة)- دار ألكا- بلجيكا ٢٠١٨

٢٠.كفّ عني يا فيثاغورس (شعر) – دار سبيريز للطباعة والنشر – دهوك.٢٠١٩

٢١.لا ريح تقلني، لا أرض تحملني (شعر كوردي مترجم) – دار الضفاف-عمان ٢٠٢٠



في انتظار الطبع:

أغنيات الندى والنابالم- شعراء وقصائد من الأدب الكردي الحديث (ترجمة)

١. أمسِكْ بنجمةٍ هاوية-قصائد من الشعر العالمي (ترجمة)
٢. العنب المر-قصص من بلاد الكرد (ترجمة)
٣. الزغابة الطائرة وقصائد أخرى من الأدب الإيراني (ترجمة)
٤. الغرانيق تحلق جنوبا-قصص قصيرة من الأدب العالمي (ترجمة)
٥. اغنيات خالدات (ترجمة)
٦. بين الأدب القصصي الشعبي وأدب الأطفال (دراسة)
٧. مهنة المجانين (مقالات ودراسات عن ترجمة الشعر)
٨. حكايات الموقد الخشبي-قصص من الفولكلور الكردي
٩. ويهمي المطر، مائة قصيدة وقصيدة ثانية من الشعر النسوي العالمي (ترجمة)

١٠.أمي تذهب الى الجنة وقصائد أخرى لقوبادي جليزاده (ترجمة)

١١.أمة تُضحك الأمم (مقالات ساخرة)

١٢.الباكي على النمل (قصص قصيرة)

١٣.ملك في بلاد العميان (قصص قصيرة جدا)

١٤.الثعلب الذي امتطى جملاً-حكايات من الفولكلور العالمي (ترجمة)

١٥.نظرات في الصناعة المعجمية الكوردية (مقالات ودراسات)

عنوان البريد الالكتروني

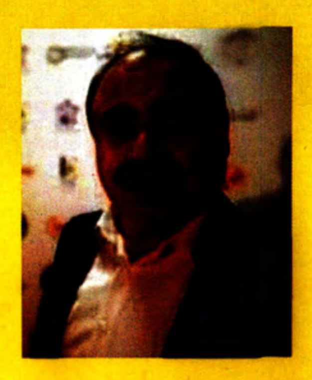
majidalhydar@gmail.com

العنوان البريدي: العراق-دهوك-اتحاد الأدباء الكرد

باشراف المدير العام

ثاوات حسن امين

طبع الكتاب في مطبعة الوقف الحديثة/ ديوان الوقف السني
بغداد ٢٠٢١



بانسيۆنا لاتا بلند

چيرۆكێن هەلبژارتی

ئيسماعيل سلێمان هاجانی

وەرگێڕان لە كوردیەوە

ماجد الحيدر

وزارة الثقافة والسياحة والآثار
دار الثقافة والنشر الكوردية

التسلسل (٥٨٩)
السعر: ٢٧٥٠ دينار

تصميم : منى محمد غلام
بغداد ٢٠٢١